

المكتبة الناريخية
بإشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

٤

طائفة الأسماء العربية
تاريخها . نظرها . عقائدها

للدكتور محمد كامل حسين

أستاذ الأدب المصري بكلية الآداب بجامعة القاهرة

مكتبة الفنون والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٥٩

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

فهرس الكتاب

صفحة

- تقديم الكتاب بقلم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ... ٥
- مقدمة ١
- الفصل الأول : دور الستر ٣
- » الثاني : دور الظهور ٢٩
- » الثالث : الإسماعيلية الغربية ٤٦
- » الرابع : الإسماعيلية الشرقية في فارس ٦٢
- » الخامس : الإسماعيلية النزارية في الشام ٩١
- » السادس : أغا خان ١١٠
- » السابع : أسرار نظام الإسماعيلية ١٣٠
- » الثامن : عقائد الإسماعيلية ١٤٧

CONTENTS

PREFACE	viii
CHAPTER I. THE HISTORY OF THE	1
CHAPTER II. THE HISTORY OF THE	15
CHAPTER III. THE HISTORY OF THE	30
CHAPTER IV. THE HISTORY OF THE	45
CHAPTER V. THE HISTORY OF THE	60
CHAPTER VI. THE HISTORY OF THE	75
CHAPTER VII. THE HISTORY OF THE	90
CHAPTER VIII. THE HISTORY OF THE	105
CHAPTER IX. THE HISTORY OF THE	120
CHAPTER X. THE HISTORY OF THE	135

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم الكتاب

بقلم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

لا أكاد أعرف أستاذاً تعشق موضوع تخصصه ، فأخلص له ، وبذل له من ذات نفسه وقلبه وعقله ، وفرغ له حتى لا يكاد يريم عنه ، كما فعل زميلي الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين .
قد تخصص الصديق الفاضل في الدراسات الإسماعيلية منذ سنوات بعيدة ، وحشد لها جهوده ، ووقف عليها نشاطه ، حتى أصبح — بحق — من روادها الأول ، لا بين الناطقين بالضاد فحسب ، وإنما بين سائر علمائها في شتى أقطار الأرض .

وقد استطاع الدكتور كامل حسين بوسائل مختلفة — وله في ذلك قصص شائقة — استطاع أن يجمع لنفسه طائفة كبيرة من الكتب والرسائل المخطوطة في تاريخ الفرقة الإسماعيلية وعقائدها ، قل — بل ندر — أن توافرت لغيره من الباحثين في هذا الحقل . ولا غرو فقد عرف عن الإسماعيليين حرصهم الشديد على تراثهم

الفكرى حتى ليضنوا به أن يرى النور . فمكف على قراءتها وفك
 طلاسمها حتى استوى له تاريخ الإسماعيلية وعقائدهم ، وقد نشر
 من تلك المخطوطات طائفة كبيرة ، ثم هو لا يزال يعمل في تحقيق
 ما بقي منها تمهيداً لنشره . وحسبك أن تطلع على قائمة الكتب
 التي نشرها الدكتور محمد كامل حسين في الأدب الإسماعيلي
 والعقائد الإسماعيلية والدعوة والدعاة لتقدر الجهد العنيف الذي
 بذله — في دأب متصل — لخدمة هذا الجانب الهام من التراث
 الفكرى والدينى والتاريخى لتلك الفرقة الإسلامية الشهيرة .

على أن الدكتور كامل حسين لم يقنع بالدراسة النظرية لهذا
 التراث في مصادره الأولى ، وإنما أضاف إلى ذلك خبرات عملية
 نتيجة لاتصاله الشخصى ببعض كبار الإسماعيليين ، وفي مقدمتهم
 زعيمهم « أغا خان » الراحل . وقد زار الدكتور أكثر مراكز
 الإسماعيلية في الشام والعراق والهند وغيرها ، ودرس حياتهم
 عن كثب ، وناقشهم آراءهم ، ووقف منهم على تفسير بعض
 ما غمض من معتقداتهم .

ومن الحق أن نذكر أن تمشق الدكتور محمد كامل حسين
 لموضوع الإسماعيلية وطول صحبته له لم يصرفاه عما ينبغي أن يتوافر
 للعالم من نزاهة الحكم والبعد عن الهوى والتزام القصد
 في أحكامه .

(ز)

والواقع أن الدكتور كامل حسين قد التمس دائماً وجه الحق
في كل ما كتب سواء رضى عنه الإسماعيلية أو سخطوا عليه .
والكتاب الذى تقدمه له اليوم عن « طائفة الإسماعيلية :
تاريخها ونظمها وعقائدها » خير مثل لذلك . والكتاب - على
صغره - ثمره لدراسات مستفيضة وخبرات شخصية للمؤلف .
ولا شك أن القارى سيقدر أن وراء كل موضوع من الموضوعات
التي ينتظمها هذا الكتاب حشد كبير من الاطلاع والدراسة
لا يقوى عليه إلا من ملك ناصية بحثه ، حتى ليصبح - بين يديه -
أمراً سهلاً ميسراً ، مجلواً للناس في تلك الصورة الرائقة الواضحة .
نرجو الله أن ينفع به . وعلى الله قصد السبيل .

أحمد عزت عبد الكريم

١٤ يناير ١٩٥٩



مقدمة

قام الاسماعيلية بدور خطير في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في بلدان مختلفة من العالم الإسلامي ولهم أثر في التاريخ لا نستطيع أن ننكره ، ولا أكاد أعرف فرقة من الفرق الإسلامية كان لها ما للاسماعيلية من تاريخ طويل حافل بالحوادث والتيارات ، فلا غرو أن نسمع باهتمام العلماء بهذه الفرقة منذ ظهورها على مسرح الحياة السياسية . ووضعوا عنها من المؤلفات قديماً وحديثاً ما لم يوضع مثله عن فرقة أخرى ، فالذين خالفوا الاسماعيلية طعنوا رجالها وفندوا آراءهم الدينية ، وقام علماء الاسماعيلية بدفع الاتهامات التي انصبت عليهم وردوا على مخالفهم ، فكان الجدل بين الاسماعيلية وأعدائهم سبباً في ثروة علمية شغلت الفكر زمناً طويلاً ، بل لا تزال الكتب تؤلف عن الاسماعيلية إلى الآن . وأسس الاسماعيلية أكثر من دولة لهم ، وفي بقاع مختلفة من البلدان الإسلامية . وكانت لهم دولة في المغرب امتدت إلى صقلية وجنوب إيطاليا ، وكانت لهم دولة في مصر ، وأخرى في اليمن ، وأسسوا دولة في بلاد فارس ، وكانت لهم قلاعهم وحصونهم في الشام ، ومن الطبيعي أن يكون لهذه الدول أثر في مجرى الحوادث في العصور الوسطى ، حتى خشى بأس الاسماعيلية كل الدول

المجاورة لهم بل والبيعة عنهم ، وكانت بينهم حروب عنيفة قاسية امتدت وتشعبت . كما كان للاسماعيلية مذهب ديني خاص دانوا الله به وعملوا على نشره في العالم بالدعاية المنظمة تنظيماً دقيقاً حتى استجاب لهم جمهور كبير من الناس . وهذا الكتاب محاولة مبسطة للتعريف بتاريخ هذه الفرقة وبأهم الأدوار التي مرت بها الطائفة مع شرح مبسط لنظمها وبعض عقائدها .
وأرجو أن أكون قد وفقت في تقريب ذلك كله إلى جمهور المثقفين . والله تعالى ولي التوفيق ما

محمد طاهر حسين

الحيزة في أول يناير سنة ١٩٥٩

الفصل الأول

دور الستر

طائفة الاسماعيلية فرقة من فرق الشيعة ، أخذت أصولها المذهبية عن الأصول الشيعية التي وجدت قبل ظهور الاسماعيلية ، تلك الأصول التي لم تكن في أول أمرها تختلف عما ذهب إليه غيرهم من المسلمين في شيء ، وكان الخلاف ينحصر في نقطة واحدة ليست من صميم الدين في شيء إنما كان الاختلاف حول الإمامة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن الشيعة جعلوا الإمامة حقاً شرعياً للإمام علي بن أبي طالب ولأبنائه من بعده ، وذهبوا إلى أن هذا الحق الشرعي هو بأمر من الله سبحانه وتعالى ونص منه إلى نبيه الكريم ، فقالوا إن النبي صلى الله عليه وسلم في عودته من حجة الوداع نزل بالجحفة « بين مكة والمدينة » عند غدير يعرف بغدير خم في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ، وهناك جاءه الوحي بالآية القرآنية الكريمة (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) . ويستمر الشيعة في حديثهم عن ذلك فيقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم صدع بأمر ربه وأمر بالصلاة ، حتى إذا

انتهى منها خطب الناس ، وهو آخذ بيد علي بن أبي طالب ،
 فكان مما قاله عليه السلام في خطبته : « أستم تعلمون أنى أولى
 بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : أستم
 تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا بلى يا رسول الله .
 قال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد
 من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق
 معه حيث دار » . فعندما سمع الصحابة رضوان الله عليهم قول
 الرسول الكريم هنا وأعلماً بأنه أصبح مولى جميع المسلمين . وفي
 مسند أحمد بن حنبل : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان
 أول المهتئين لعلي . فالشيعة على خلاف مذاهبهم وتباين أهوائهم
 يثبتون هذا الحديث النبوى ، ويعتبرون يوم الغدير عيداً لهم
 لا يزالون يحتفلون به إلى يومنا هذا . هذا هو الأساس الأول
 لعقيدة الشيعة عامة في ولاية علي بن أبي طالب ، وبذلك رفضوا
 الاعتراف بإمامة الشيخن أبي بكر وعمر وإمامة عثمان بن عفان ،
 ومن الطبيعي ألا يعترفوا بالأمويين أو العباسيين أو غيرهم من
 الخلفاء . هذا هو الخلاف الأول الذى قام بين الشيعة وجمهور أهل
 السنة والجماعة ، وكان هذا الخلاف فى أول الأمر لا يبعدهم فى
 قليل أو كثير عن سائر المسلمين . ولكن بمرور الزمن أصبح هذا
 الخلاف أصلاً من أصول العقيدة الشيعية ، وفرضاً من فرائض
 الدين عندهم وأساس فلسفتهم المذهبية ، وعنه تفرعت مسائل

أخرى وآراء جديدة ، تجمعت على مدى الأيام وتبلورت وكونت العقيدة الشيعية التي نعرفها الآن .

رأى المتشيعون في أول الأمر أن أمور دينهم يجب أن تؤخذ عن أعقاب النبي (ص) الذين تسلسلوا من أولاد فاطمة بنت النبي وزوجها علي بن أبي طالب ، وأن حفدة النبي أحق الناس بأن يعرفوا حقيقة رسالة جدهم وأن يفهموها حق الفهم وأن يبشروا بها كما بشر بها جدهم محمد (ص) ، فهم وحدثهم ورثة علم النبي خصهم النبي بذلك ليكونوا حجة على المسلمين من بعده ، وذلك كله بأمر من الله تعالى ، الذي نص على ولاية علي بن أبي طالب يوم غدیر خم في آية النص التي ذكرناها من قبل ، والتي فهمها الشيعة وأولوها تأويلاً يتفق مع مذهبهم وآرائهم في ولاية علي وأبنائه من بعده ، على أن يكون الابن الأكبر من أهل بيت الرسول هو صاحب الحق الشرعي في أن يكون القائد الروحي للمسلمين ، بل أن يكون في الوقت نفسه حاكم المسلمين . وبمعنى آخر ، رأوا أن أكبر أفراد الأسرة سنّاً هو صاحب السلطان الديني والسياسي معاً ، لارتباط الدين والسياسة في تلك الأيام بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً بحيث لا يمكن الفصل بينهما بأي حال من الأحوال . فالشيعة على هذا النحو طالبوا بقيام النظام الثيوقراطي في الإسلام ، هذا النظام الذي كان معروفاً في العصور القديمة عند كل الدول مثل المصرية والبابلية واليونانية والرومانية

وغيرها من الدول ذات الحضارات القديمة التي كانت قبل الإسلام ،
 ففي حضارات هذه الدول القديمة كان الشعب ينظر إلى الملوك
 نظرة دينية بجانب النظرة الدنيوية ، وكانت الحكومات حكومات
 إلهية ، بمعنى أن الملك كان إلهاً مقدساً ، فله أن يحكم البلاد حكماً
 مطلقاً دون أن يجرؤ أحد أن ينازعه هذا الحكم على أية صورة
 كانت ، مهما كان هذا الملك ظالماً مستبداً أو شريفاً عابثاً أو ماجناً
 خليعاً ، فالحكم له بأمر الآلهة التي عبدها الشعب ، ومن هذه
 الآلهة كان ملكهم . هذا النظام الثيوقراطي كان عند الأمم
 القديمة التي سبقت الإسلام ، ولكن انتقلت هذه الآراء القديمة
 إلى بعض من دان بالإسلام من الشعوب التي عرفت هذه النظم
 الثيوقراطية ، وتغلّبت هذه الآراء القديمة عندهم على الرغم مما
 جاء به الإسلام وما ورد في القرآن الكريم عن النبي (ص) نفسه
 (وما أنا إلا بشر مثلكم) . ولكن تغلّبت الآراء القديمة في
 نفوسهم ، فكان لها أثر أقوى من تغلّغ دين الإسلام الجديد .
 وإقراراً للحقيقة نذكر أن آراء الشيعة الثيوقراطية في أول الأمر
 كانت معتدلة جداً بالنسبة إلى ما كان عليه الأمر عند الشعوب
 القديمة ، فإن الشيعة في أول أمرهم لم يؤلّوها علياً ولا أحد
 أحفاده ، بالرغم مما أسبغوه على الأئمة من مناقب وفضائل تطورت
 إلى حد بعيد بعد القرن الثالث للهجرة .

كان الدين قوام الحياة في العالم القديم والوسيط ، ففي القرون

الثلاثة الأولى للهجرة كان شعور السخط عند المسلمين يزداد على الحاكين لانصراف بعض الحكام عن المثل الدينية الإسلامية التي جاء بها القرآن الكريم وفي سنة الرسول عليه السلام ، وتطلع الناس إلى أن يعود حكم الخلفاء الراشدين ، وها هو مالك ابن أنس وهو من أئمة أهل السنة والجماعة يبدي سخطه وغضبه على حكم العباسيين ، وكان يتمنى لو عادت أيام الخلفاء الراشدين ، أو أيام الأمويين وخاصة أيام عمر بن عبد العزيز . فمالك بن أنس مثل من أمثلة عديدة نستطيع أن نأخذ منها شعور المسلمين ، ولا سيما جماعة العلماء والفقهاء نحو الحاكين . ومن الطبيعي أن هذا الشعور كان يعبر عن شعور غيرهم من المسلمين ، أما جماعة الشيعة في هذه العصور فكان شعورهم نحو الحاكين هو نفس شعور غيرهم من المسلمين ، ولكنهم كانوا يتطلعون إلى أن يعم العدل بين الناس على يد زعيم من أهل بيت رسول الله ، ولذلك كانوا يلتفون حول أكبر فرد سناً من أهل البيت ليأخذوا عنه علوم الدين ، كما كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى الرجل الذي يستطيع أن يخلصهم مما هم فيه من ظلم واضطهاد ، ويرجون اليوم الذي يتولى فيه هذا الرجل حقه الشرعي من حكم العالم . وربما دبر هؤلاء الشيعة حركات ثورية للتخلص من الحاكم ليتولى رجل من أهل البيت الحكم ، وكان من الطبيعي أن يوجس الحاكمون في تلك الأوقات خيفة من أمثال هذه التجمعات حول أهل البيت ، إذ رأوا فيها خطراً

عظيماً يهدد سلطانهم . فلا غرابة إذن أن نرى الحاكمين يأخذون كل حركة من هؤلاء بالعنف والشدة ، بل تتبعوا أهل البيت أنفسهم بالثريد والتعذيب والسجن والقتل ، مما أدى إلى ازدياد سخط العامة من الشيعة وغيرهم ، كلما مرت السنون وأصبح حلم الشيعة في إقامة حكم عادل على يد أحد أهل البيت يجتذب جمهرة المسلمين المعذبة اجتذاباً شديداً جداً ، كانوا يريدون إماماً عادلاً من أهل البيت يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً ، ومن هنا نستطيع أن ندرك سبب قيام تلك الحركات الثورية العنيفة التي قام بها الشيعة من حين لآخر منذ ثورة الحسين بن علي بن أبي طالب ، كما نستطيع أن ندرك أيضاً سبب انتشار التشيع بين الجماهير الفقيرة المعذبة الكادحة الذين كانوا يأملون في استقرار نظام تسوده العدالة الاجتماعية برئاسة إمام من أهل البيت .

واكن واجه المتشيعون عدة مشاكل ، غير ما كانوا يلاقونه من اضطهاد الأمويين والعباسيين ، فقد تكاثر عدد أفراد أهل بيت الرسول بمرور السنين ، وتفرقت الأسرة في بلاد مختلفة ، الأمر الذي أدى إلى أن أصبح من الصعب معرفة أكبر أفراد الأسرة سناً ، وهو الشخص الذي له الحق الشرعي في تولى أمر الشيعة حسب عقائدهم الأولى . وكان لزاماً إذن أن تتطور فكرة اختيار أكبر الأفراد سناً إلى اختيار أبرزهم في الحياة العامة ، ثم تطورت هذه الفكرة مرة أخرى إلى اختيار المعهم شأنًا من أبناء

الحسين بن عليّ ، ولا سيما بعد أن ظهر في فرع الحسين بن عليّ
 أعظم أهل البيت موهبة في العلم والدين : وهو جعفر الصادق بن
 محمد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ،
 المتوفى حوالى سنة ١٤٧ هـ ، الذى التف حوله عدد كبير من
 الشيعة ، حتى اعتبر في نظر الشيعة الإمامية أنه المؤسس الحقيقى
 للمدرسة الشيعية الدينية وواضع أصول العقيدة الشيعية ، ذلك
 بالرغم من أن المعروف عن جعفر الصادق تاريخياً أنه لم يناد
 بنفسه إماماً للشيعة ، ولم يقم بثورة يطالب فيها بالحكم ، ولكنه
 بفضل شخصيته الفذة ومواهبه المتعددة وشدة ورعه وتدينه
 استطاع أن يمد جماعة الشيعة الذين التفوا حوله بما كانوا في
 مسيس الحاجة إليه من وجود شخص من أهل البيت يجتمعون
 إليه ويأخذون العلم عنه . ومما لا شك فيه أن أبناء جعفر الصادق
 وحفدته الذين جاءوا بعده لم يستطيعوا أن يبلغوا ما بلغه جعفر
 الصادق في نفوس الشيعة ، ولم يرث أحدهم صفاته العالية ، بل
 عاشوا على تراثه الروحى الذى تركه في نفوس الناس ، ولهذا نرى
 الشيعة الإمامية في العراق وإيران والشام الآن يطلقون على
 أنفسهم أصحاب المذهب الجعفرى ، أى أنهم أتباع جعفر الصادق .
 وجد إذن شخص عظيم من أهل البيت ارتاح له الناس وتجمعوا
 حوله للأخذ عنه .

ويجب أن نذكر هنا أن عدداً كبيراً من علماء أهل السنة

والجماعة تلمذوا أيضاً على جعفر الصادق : نذكر منهم على سبيل
المثال الإمام مالك بن أنس ، وذلك لما عرف عن الصادق من
اعتدال في الرأي والعقيدة بحيث يقبل آراء كل مسلم ، السنّي
منهم والشيعة ، ولكن هذه الآراء التي كان ينادى بها الصادق
وكونت مذهبه الديني دار حولها كتابات كثير من علماء الشيعة
في القرن الرابع للهجرة وما تلاه من قرون ، وتطورت هذه
الآراء بمرور الزمن ، ونسبت إلى الصادق تعاليم وآراء لم يقل بها ،
كما أدخل بعض الشيعة في تعاليمه آراء هي من راث الأمم القديمة
التي خضعت للمسلمين أو التي امتزجت بالمسلمين على نحو ما ،
فكثرت الآراء واختلفت النزعات وتشعبت الأهواء ، وظهر عند
بعض البيئات الشيعية انحراف ومغالة في الآراء الدينية كان من
نتائجها أن اضطر المتشيعون أنفسهم من المحافظين على المذهب
الجعفرى إلى أن يتبرأوا من القائلين بهذه المقالات المتطرفة ومن
آرائهم ، كالذى نراه مثلاً عند أصحاب أبي الخطاب الأسدى الذى
كان من تلاميذ جعفر الصادق ومن ألصق الناس به ، ولكنه
غالى فادعى ألوهية جعفر الصادق نفسه ، مما جعل الصادق يستعيز
بالله من شر فمآلته ويتبرأ منه ومن كل من ذهب مذهبه . كثرت
إذن الفرق الشيعية وتعددت آراؤهم واختلفت اختلافاً متبايناً بين
معتدلة وغالية ، وجذبت الآراء الشيعية عدداً كبيراً من المسلمين ،
فأصبح للشيعة كيان خاص عرفوا به ، وهم لا يزالون إلى يومنا

هذا في عدة بلاد من العالم على نحو ما سند كره .

ومهما يكن من شيء فقد انقسمت الشيعة الجعفرية بعد وفاة جعفر الصادق حوالى سنة ١٤٧ هـ إلى فرقتين ، وكان انقسامها بسبب الإمامة ، ذلك أن الأثرية العظمى من أتباع المذهب الجعفرى نادوا بإمامة موسى الكاظم ابن جعفر الصادق وسلسلوا الإمامة فى الأكبر سنّاً من عقبه ، إلى أن أشيع بأن الإمام الثانى عشر وهو محمد بن الحسن العسكري دخل سرداباً فى مدينة سامراء (شمالى بغداد بالعراق) وأنه اختفى فى هذا السرداب خوفاً على نفسه من بطش العباسيين وتنكيلهم بالشيعة عامة وأهل البيت خاصة ، ويقول شيعته إنه لا يزال إلى الآن حياً ، وأنه سيخرج من سردابه يوم القيامة على أنه « المهدي المنتظر » الذى سيملاً الدنيا عدلاً ويرد الحق إلى أهله فى الأيام القلائل التى تسبق يوم القيامة ، وأكثر الشيعة فى إيران والعراق وسورية ولبنان الآن يدينون بإمامة الأئمة الاثنى عشر الذين دخل آخرهم السرداب حوالى سنة ٢٦٠ هـ وسميت هذه الفرقة بالموسوية نسبة إلى موسى الكاظم أو بالإمامية الاثنى عشرية نسبة إلى عدد الأئمة .

أما الفرقة الثانية التى تفرعت عن المذهب الجعفرى فهى فرقة الاسماعيلية الذين قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق فنسبت إليه الفرقة . ومن الطريف أن مؤرخى الاسماعيلية وعلماءهم يروون قصةً عن سبب انشقاق أتباع جعفر الصادق إلى هاتين الشعبتين ،

فقال بعضهم إن جعفر الصادق نص على أن يتولى إسماعيل الإمامة من بعده ولكن إسماعيل توفي في حياة أبيه ، وبذلك انتقلت الإمامة إلى ابنه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، لأن الإمامة لا تكون إلا في الأعقاب ، ولا تنتقل من أخ إلى أخيه إلا في حالة الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب فقط ، أما الأئمة بعد الحسن والحسين فلا بد أن تنتقل من أب إلى ابن ، وأولوا الآية القرآنية الكريمة (وجعلها كلمة باقية في عقبه) بأن معنى الكلمة هي الإمامة ، وأنها لا بد أن تكون في الأعقاب دون غيرهم ، وبما أن إسماعيل بن جعفر الصادق كان صاحب الحق الشرعي في الإمامة بعد أن نص أبوه على ذلك ، فلا بد إذن أن تتسلسل الإمامة في ابنه محمد بن إسماعيل . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان محمد بن إسماعيل أكبر سناً من عمه موسى الكاظم ، فبناء على التقليد الشيعي القديم الذي يوجب تسلسل الإمامة في أكبر أهل البيت سناً كان محمد بن إسماعيل إذن أحق من عمه موسى الكاظم بالإمامة . على أن أكثر مؤرخي الاسماعيلية يقولون إن قصة وفاة إسماعيل بن جعفر في حياة أبيه إنما كانت قصة أراد بها جعفر الصادق التمويه والتعمية على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي كان يطارد أئمة الشيعة ، فخاف جعفر الصادق على ابنه وخليفته إسماعيل فادعى موته ، وأتى بشهود كتبوا محضراً بوفاته ، وأرسل ذلك المحضر إلى الخليفة العباسي الذي أظهر سروراً

وارتياحاً لوفاة إسماعيل الذي كان إليه أمر إمامه الشيعية . ثم شوهده إسماعيل بعد ذلك في البصرة وفي غيرها من بلاد فارس . وعلى ذلك فالإمامة لم تسقط عن إسماعيل بالموت قبل وفاة أبيه لأنه مات بعد أبيه . ولملأ لا أغلو إذا قلت إن هذه القصة — قصة التويه بوفاه إسماعيل — هي قصة خيالية وضعها بعض أصحاب المناقب من مؤرخي وكتاب الإسماعيلية الذين يكثرون من مثل هذه القصص في كتاباتهم ليضيفوا على الأئمة الإسماعيلية مناقب وفضائل لا يقرها عقل .

على أن مؤرخي الفرقة الشيعية الاثني عشرية وبعض مؤرخي أهل السنة والجماعة يذهبون في إسماعيل هذا مذهباً مختلفاً كل الاختلاف عما قاله الإسماعيلية . فقد ذهبوا إلى أن إسماعيل بن جعفر الصادق لم يكن بالرجل الذي يصلح للإمامة ، فقد كان مدمناً على شرب الخمر ولوعاً بالنساء وأنه كان من أصدقاء أبي الخطاب الأسدي الفاسق الملحد الذي ادعى ألوهية جعفر الصادق وأنه (أى أبا الخطاب) كان رسوله ، مما جعل جعفر الصادق يتبرأ منه ولا يرضى عن الصلة التي كانت بينه وبين إسماعيل ، وأن جعفر أظهر فرحه لموت ابنه إسماعيل لما كان معروفاً عنه من فسق . هكذا اضطربت الروايات واختلفت الأقاويل في أمر إسماعيل بن جعفر الصادق بحيث أصبحنا لا ندرى حقيقة أمره ، ولا سيما أنه الرجل الذي تسب إليه فرقة الإسماعيلية التي قامت بدور هام في تاريخ

العالم الإسلامي منذ ظهورها . ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف في إسماعيل فالتاريخ يجهل جهلاً تاماً كيف بدأت الدعوة لإمامة إسماعيل فنحن لا نستطيع أن نعرف أول من دعا بإمامته ، ولا نستطيع أن نحدد تاريخ ظهور دعوته لأول مرة ، وإن كنا نرجح أن بعض أتباع أبي الخطاب الأسدي هم الذين نادوا به ، وأنهم أغروا ابنه محمداً بالدعوة لنفسه بعد أبيه . وثابت من التاريخ أن محمداً بن إسماعيل بن جعفر الصادق اضطر إلى أن يترك مسقط رأسه في المدينة المنورة وإلى أن يهاجر إلى خوزستان (جنوب غربي إيران) ثم تركها إلى بلاد الديلم (جنوب بحر قزوين) ، ولم يسمع عنه شيء بعد ذلك . ومن يدري ! لعل هجرته هذه كانت بسبب التفاف الشيعة حول عمه موسى الكاظم من دونه ، فشاء أن يجد لنفسه أتباعاً وأن يقيم لنفسه دعوة في هذه الأقاليم التي هاجر إليها ، ولعل الذين أغروه بالدعوة لنفسه هم الذين زينوا له فكرة الهجرة عساه ينجح في تلك البلاد البعيدة عن أعين الخلفاء العباسيين ، وقد تكون هناك أسباب أخرى لا نعرفها أوجت إليه بالهجرة . على أننا لم يصلنا شيء عنه ولا عن دعوته ، بل لم يعرف التاريخ شيئاً اسمه فرقة الإسماعيلية حتى أواخر القرن الثالث للهجرة ، ففي أواخر هذا القرن نسمع عن حركة القرامطة في البحرين وبلاد الشام ، ونسمع ما يرويه مؤرخو الإسماعيلية من أن أسرة محمد بن إسماعيل وفدت على بلاد الشام واستقرت

في مدينة « سلمية » (بالقرب من حمص بسورية) في هيئة
 التجار ، وأنهم كانوا يخفون شخصيتهم خوفاً على أنفسهم بينما
 كانوا يرسلون دعايتهم إلى جميع البلاد الإسلامية للتبشير بقرب
 ظهور المهدي المنتظر من نسل إسماعيل بن جعفر الصادق ، وبمعنى
 آخر ظهور الإمام صاحب الحق الشرعي من نسل الرسول (ص)
 ليتولى قيادة المسلمين . فظهور القرامطة في البحرين والشام كان
 إيذاناً بظهور الاسماعيلية على مسرح السياسة بصفة إيجابية . بعد
 أن ظلت الاسماعيلية مستترة لا يعرف أحد شيئاً عنها زهاء قرن
 من الزمان . ولكن مؤرخي الاسماعيلية يحلو لهم دائماً أن
 يتحدثوا عن هذه الفترة من تاريخ أمتهم ، وهي الفترة التي تعرف
 عندهم (بدور الستر) أي الفترة التي اضطرب فيها الأئمة إلى الاستتار
 خوفاً من بطش أعدائهم العباسيين ، وكل مؤرخ من مؤرخي
 الاسماعيلية تناول الحديث عن هذه الفترة بما يبدو له ، بحيث جاء
 حديثهم مضطرباً أشد الاضطراب مختلفاً أشد الاختلاف ، فهم
 مختلفون في عدد أئمة هذه الفترة ، وهم مختلفون أيضاً في أسماء
 هؤلاء الأئمة ، جعل بعضهم الأئمة ثلاثة ، وقال بعضهم بل خمسة ،
 وقال بعضهم بل سبعة ويكفي أن أنقل هنا ما كتبه أشهر مؤرخي
 الاسماعيلية وهو الداعي إدريس في كتابه عيون الأخبار عن هجرة
 محمد بن إسماعيل إلى بلاد فارس وانتقال أسرته إلى بلاد الشام
 فقد قال بعد أن اشتد الضغط على الإمام السابع محمد بن إسماعيل

ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب خرج من المدينة إلى الكوفة مصحوباً بأخيه علي ، وظل فيها مدة من الزمن مستتراً عن العيون بعيداً عن الأرصاد ، حتى ولد له فيها ولد أسماه عبدالله ، ومن الكوفة سار إلى الري ، واستتر عند أحد دعاته السريين المسمى إسحق بن عباس . وكان يشغل منصب حاكم الري من قبل الرشيد العباسي ، وبعد مدة من الزمن قال له إسحق : يا مولاي قد علمت اليوم أنهم بثوا العيون في كل مكان وأنى أصبحت أخشى عليك منهم ، فإن رأيت أن تخرج إلى الجبل وتعتصم بقلعة نهاوند عند خادمك الداعي منصور بن حوشب فإن ذلك أنسب ، وعلى كل حال الأمر لك يا مولاي . فعمل بإشارته ، وبعد ذهابه قبض العباسيون على إسحق وعذبوه عذاباً شديداً ، وقيل إنه مات تحت السياط دون أن يدل على مكان الإمام ، ولما لم يعرف هرون الرشيد عن أمر الإمام شيئاً ، أرسل قائده محمداً الخراساني ومعه جيش كبير من الكرد والأتراك للتفتيش عنه ثم القبض عليه ، فلما وصل إلى نهاوند دخل مسجدها ، فرأى الإمام محمداً بن إسماعيل مسنداً ظهره إلى الحراب وبين يديه رجلان يعلمهما أصول الدين ، فلم يمالك القائد نفسه حينما رأى عظمته وجلال هيئته من أن ينحني أمامه ويقبل يديه ، ثم أشار إليه بضرورة سفره من نهاوند لأن الرشيد يريد أن يقبض عليه إذا ما ظل فيها ، فخرج منها تحت جنح الظلام مستتراً إلى بلدة سابور ،

ومنها إلى فرغانة وبعد ذلك إلى عسكر مكرم ، وهناك على مشهد من دعائه نص على إمامة ولده عبد الله ولقبه بأحمد الوفي ، وبعد ذلك بزمن قليل توفي إلى رحمة الله سنة ١٦٩ هـ ، فاستلم الإمامة من بعده ولده عبد الله وازداد في التستر والخفاء ، وخرج سرّاً من عسكر مكرم إلى زمهر ومنها إلى الديلم ، وهناك تزوج بامرأة من الأسرة العلوية يسمى والدها الأمير على الهمداني ، فرزق منها ولدًا أسماه أحمد ولقبه محمد التقي ثم إن دعوتهم انتشرت انتشاراً واسعاً واستجاب لهم خلق كثير العدد في بلاد العرب وفارس ، ولكن الضغط اشتد عليه من قبل المأمون العباسي ، فاضطر إلى مغادرة الديلم قاصداً مدينة معرة النعمان قرب حلب ، فأقام فيها مدة ، ثم أنه غادرها بعد ذلك إلى مدينة سلمية قرب حمص بعد أن ترك أخاه حسيناً يقوم بالنيابة عنه ، وأخذ العهد على المستجيبين لدعوته ، وفي سلمية نص على إمامة ولده أحمد بن عبد الله على مشهد من رجال دعوته ، وانتقل بعد ذلك إلى بلدة مصيف بسورية ومات فيها ، ودفن بأعلى قمة جبلها بمكان سمي المشهد ، وكان ذلك سنة ٢١٢ هـ ، وبعد وفاته استلم شؤون الإمامة ولده المسمى أحمد بن عبد الله وهو الملقب بمحمد التقي . وهذا الإمام كان كثير التنقل في البلدان يحب التبشير بالدعوة بنفسه ، فوضع الوكلاء والدعاة بمرکز دعوته بسلمية ، وسارمتقلبا في بلدان الشام ، وأخيراً انتقل إلى الري وإلى همدان ثم إلى أذربيجان ومنها جاء

إلى استنبول (هكذا!!) حيث توفي فيها سنة ٢٢٩ هـ، وبعد ذلك استلم شئون الدعوة الإمامية ولده وكان يقيم في سلمية وهو المسمى الحسين بن أحمد بن عبد الله الملقب بعبد الله الرضى ، وقد توفي في سلمية سنة ٢٦٧ هـ . ودفن في المسجد الكبير الذي كان يصلي فيه .

هذا ما ذكره أكبر مؤرخ عند الاسماعيليين وهو الدايمي إدريس عماد الدين بن الحسن المتوفى سنة ٨٧٢ هـ في كتابه عيون الأخبار الذي يعد أعظم كتاب في تاريخ الاسماعيليين ، ولكن الظاهر من هذا النص أن المؤرخ خلط كثيراً من أخبار ذكرت في كتب إسماعيلية أخرى ، بأخبار أتى بها من عنده لم تذكر في الكتب الأخرى ، وإن الأسماء التي ذكرها تختلف عن أسماء الأئمة الذين وردوا في كتب الاسماعيليين ، كما أننا نلاحظ عدة أخطاء تاريخية وقع فيها هذا المؤرخ الكبير ، فقد ذكر مثلاً الدايمي المنصور بن حوشب على أنه كان صاحب قلعة نهاوند حوالي سنة ١٦٩ هـ ، مع أن ابن حوشب كان من رجال القرن الثالث للهجرة وليس من رجال القرن الثاني للهجرة ، ومسألة دخول الإمام استنبول ووفاته بها تدعو إلى الدهشة ، لأن استنبول في هذه الأيام لم تكن من البلاد الإسلامية ؛ إنما كانت عاصمة الأمبراطورية البيزنطية التي كانت في حروب مستمرة مع المسلمين ! إلى غير ذلك من أخطاء وقع فيها المؤرخ شأنه في ذلك شأن كل

مؤرخي الاسماعيلية الذين تركوا لنا كتباً يصعب جداً الاعتماد عليها
للكثرة ما فيها من اختلافات وأخطاء تاريخية . ومن المؤسف
أن هذا الاختلاف لم يكن بين مؤرخيهم فحسب ، بل كان أيضاً
بين كبار علماء الدعوة الاسماعيلية على نحو ما سندكره فيما بعد .
وما دام مؤرخو الاسماعيلية أنفسهم لم يستطيعوا أن يعطونا صورة
صحيحة عن أئمتهم في الفترة بين سنة ١٤٧ هـ ، وهي سنة وفاة جعفر
الصادق وسنة ٢٩٦ هـ ، وهي سنة ظهور عبيد الله المهدي بالمغرب
لشدة ستر الأئمة ؛ فن الطبيعي أن لا نجد مؤرخاً من مؤرخي العرب
اهتم بهم في هذه الفترة . ومعنى هذا كله أننا لا نستطيع أن ندلي
برأي صحيح عن تاريخ الاسماعيلية في دور الستر ، فهي فترة
غامضة أشد الغموض حتى إن بعض مؤرخي وكتاب الاسماعيلية
تحدثوا عن هذه الفترة رمزاً دون تصريح ، مما يجعل موضوع
الحديث عن دور الستر شاقاً عسيراً على كل باحث في تاريخ
الاسماعيلية ، فإن الشيعة عامة والاسماعيلية بوجه خاص اتخذوا
التقية مذهباً من مذاهبهم ، ويروون عن الإمام جعفر الصادق
أنه قال : التقية ديني ودين آبائي ، ومن لا تقية له فلا دين له .
فكانت هذه التقية سبباً في غموض تاريخهم واختلاف المؤرخين
واضطرابهم فيما كتبوا .

ولعل هذه التقية التي سببت هذا الغموض في دور الستر كانت
سبباً في هذه الحملة الشديدة التي شنها العباسيون وعلماء أهل السنة

والجماعة وعلماء الشيعة الاثني عشرية حول نسب عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الاسماعيلية التي عرفت في التاريخ باسم الدولة الفاطمية ، فبالرغم من كثرة ما كتب في عصرنا الحديث حول نسب الفاطميين ، فإننا نأسف لاضطرارنا إلى القول بأن كل ما كتب لا يوثق به وثوقاً علمياً صحيحاً وستظل هذه القضية التاريخية « نسب الفاطميين » حديثاً يكتب ويعاد دون الوصول إلى الحقيقة ، وذلك كله بسبب هذا الستر الشديد الذي فرضه الأئمة والدعاة حول أنفسهم عملاً بمبدأ « التقية » وخوفاً من بطش أعدائهم ، وسيظل الموضوع غامضاً إلى أن تكتشف نصوص جديدة يوثق بها تاريخياً . وليس أدل من اضطراب الحديث عن نسب الفاطميين عند المتقدمين أنفسهم من هذا النص الطريف الذي عثر عليه الصديق الزميل الأستاذ الدكتور حسين الهمداني في كتاب « الفرائض وحدود الدين » لجعفر بن منصور ابن حوشب ، وملخص هذا النص أن جعفر الصادق كان له أربعة أبناء هم إسماعيل وموسى ومحمد وعبد الله ، وأن الإمامة كانت لعبد الله الذي اتخذ لنفسه اسم إسماعيل تقية ، وسلسل الإمامة في عبد الله بن جعفر (الذي تسمى بإسماعيل) ثم بعده محمد بن عبد الله ، ثم عبد الله بن محمد ، ثم أحمد بن عبد الله ، ثم محمد ابن أحمد ، ثم أوصى محمد بن أحمد إلى ابن أخيه فتسمى سعيد بن الحسين (أو سعيد الخير) . وهكذا نرى هذه الخلفات الشديدة

التي لا نستطيع أن نستخرج منها الحقيقة .
وهناك مسألة أخرى تجعلنا في حيرة من أمر الإسماعيلية في
هذه الفترة الغامضة من تاريخهم (أى في دور الستر : فنحن
نعرف أن الإمام جعفر الصادق توفي حوالي سنة ١٤٧ هـ . وأن
شيعة انقسموا بعده إلى موسوية وإسماعيلية ، ومع ذلك فلم نسمع
شيئاً عن هذه الفرقة الأخيرة - أى الإسماعيلية - إلا بعد
دخول آخر إمام من أئمة الفرقة الموسوية وهو الإمام محمد بن الحسن
العسكري السرداب حوالي سنة ٢٧٠ هـ ، أى بعد وفاة جعفر
الصادق بأكثر من قرن كامل ، فأين كانت طائفة الإسماعيلية
طوال هذه المدة ؟ هذا ما لا نستطيع الإجابة عنه لأننا لم نجد
ما نستطيع الاعتماد عليه أو الوثوق به في الكتب التاريخية
أو كتب الدعوة الإسماعيلية نفسها ، ويخيل إلى أن بعض الشيعة
من الإثني عشرية صدموا لاختفاء الإمام الثاني عشر في السرداب
ولم يكن له أولاد . فتطلعوا إلى الفرع الآخر من أبناء جعفر
الصادق التسلسل من محمد بن إسماعيل فقاموا بالاعتراف بإمامتهم
والدعوة لهم ، بعد أن ظل أبناء محمد بن إسماعيل بميادين كل البعد
عن أى نشاط للدعوة لأنفسهم بالإمامة طوال هذه المدة . هذا
ما نرجحه إلى أن نظمنا إلى نصوص نثق بها تفسر لنا هذا
الغموض الشديد الذى يحيط بالإسماعيلية قبل سنة ٢٦٠ هـ ،
ولا سيما أن كتب التاريخ بين أيدينا لا تشير من قريب ولا من

بميد إلى أى نشاط من فرقة الاسماعيلية قبل هذه السنة (أى سنة ٢٦٠ هـ) .

ولعل أول حركة إسماعيلية ناجحة هي تلك الحركة التي قامت ببلاد اليمن : فإن أحد الدعاة المعروف بالحسين بن حوشب ، الملقب بمنصور اليمن ، استطاع حوالي ٢٦٦ هـ أن يجمع حوله عدداً كبيراً من قبائل اليمن ، وأظهر بينهم الدعوة للإمام الإسماعيلي المنتظر ، وأن يفتح باسمه عدداً من القلاع والحصون باليمن ، فاستطاع بذلك أن يؤسس باسم الإمام الإسماعيلي (المنتظر) أول دولة إسماعيلية في التاريخ . أما الداغي ابن حوشب الذي أسس هذه الدولة الاسماعيلية فكان أول أمره من الشيعة الاثني عشرية ، ويقال إنه قابل في الكوفة أحد الأئمة المستورين ، واستطاع هذا الإمام بعد عدة مقابلات مع ابن حوشب أن يأخذ العهد عليه ، ثم طلب منه أن يرحل للدعوة له في اليمن على أن لا يصرح باسمه ، ويكتفي بذكر مراتبه وهي الإمامة ، وأن يأخذ العهد على كل مستجيب له باسم (الإمام المنتظر من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق) أو باسم (المهدي المنتظر) فدشظ ابن حوشب مع زميل له هو علي ابن الفضل في هذه الدعوة باليمن ، حتى نجحت هذه الحركة ولذلك لقب بمنصور اليمن . ويظهر أن علياً بن الفضل نافق صاحبه مما أدى إلى أن يحاربه ابن حوشب ، ثم امتد نشاط ابن حوشب في الدعوة إلى خارج بلاد اليمن ، فكان يرسل الدعاة من قبله في

مختلف البلاد ، فكان من الدعوة الذين بعث بهم ابن حوشب إلى بلاد المغرب الداعي الحلواني والداعي السفيناني ، غير أن هذين الداعيين توفيا بعد قليل ، فأرسل الداعي أبا عبد الله الشيباني ليتم ما بدأه الحلواني والسفيناني في شمال أفريقيا من بث الدعوة بين رجال القبائل المغربية باسم المهدي المنتظر ، واستطاع أبو عبد الله الشيباني أن يكتسب تأييد قبيلة كتامة ، إذا بايعه شيوخها على الدفاع عنه وعن إمامه ، وأن يأتمروا بأمره في دينهم ودنياهم ، كل ذلك والإمام في ستره وتقيته لم يعرفه إلا من كان شديد القرب منه من كبار رجال الدعوة ، ولم يكن يعرف أحد حقيقة اسمه . وهكذا نجحت أول (١) محاولة لتأسيس دولة إسماعيلية ، وانتشر الدعاة في الأقاليم المختلفة .

وحوالي هذه السنوات التي فيها نجح الدعاة في تأسيس دولة باليمن ، قامت حركة إسماعيلية في البحرين عرفت في التاريخ بحركة القرامطة ، وامتد نشاط هذه الحركة إلى بادية الشام ، وحركة القرامطة الثورية هذه شغلت الخلافة العباسية عدة سنوات ، وهزم القرامطة جيوش العباسيين في عدة مواقع ، ودخل قرامطة البحرين مكة أثناء موسم الحج وانتزعوا الحجر الأسود وحملوه معهم إلى عاصمتهم « هجر » ، غير أن القرامطة بعد أن نجحت ثورتهم على العباسيين ، تألبوا على الإمام الإسماعيلي (١) قلت لأنها نجحت قبل ذلك في اليمن .

في سلمية ، نخلعوا طاعته وجعلوا الدعوة لزعمائهم دون أئمة
 الاسماعيلية ، بل شاءوا القضاء على أئمة الاسماعيلية فهجموا على
 سلمية ، واقتحموا دور الأئمة وسلبوا كثيراً من أموالهم وقتلوا
 بعض أفراد الأسرة ، وكان الإمام الإسماعيلي إذ ذاك هو عبيد الله
 المهدي الذي جاءت إليه الأنبياء بنوايا القرامطة فهرب مع بعض
 أفراد أسرته من سلمية إلى الرملة ، وعلم القرامطة بفراره فتبعموه
 إلى الرملة يريدون قتله ومن معه وسلب أمواله ومتاعه ، فاضطر
 المهدي إلى الفرار مرة أخرى إلى القسطنطينية بمصر ، حيث أقام
 عدة أسابيع رحل بعدها إلى شمال أفريقية ، وهناك أظهر نفسه
 وخرج من ستره وأعلن إمامته ودعوته بعد أن كانت في ستر
 وخفاء ، ويظهر أن حركة القرامطة ضده نهت العباسيين إليه ،
 فقد جهد العباسيون لمعرفة هذا الرجل الذي كان يدعو له القرامطة
 والذي دعا له ابن حوشب باليمن والحلواني والسفياني بالمغرب ،
 ولكن الستر الذي كان يضربه المهدي ومن سبقه من الأئمة حول
 أنفسهم جعل من الصعب على العباسيين أن يعرفوه ، فلولا حركة
 القرامطة في الشام ضد المهدي لما عرف العباسيون عنه شيئاً ، ولهذا
 طارده العباسيون عند فراره من سورية ، وأرسلوا إلى الولاة بصفته
 حتى يقبضوا عليه ، وكاد يقبض عليه في مصر لولا أن حذره بعض
 الدعاة ، فتركها ورجال الدولة العباسية يجدون في طلبه والبحث
 عنه ، إلى أن بلغ المهدي مدينة سجلماسة بالمغرب فقبض عليه

بنو الأغلِب أصحاب القيروان عاصمة إفريقية (تونس) وسجن المهدي ومن كان معه من أفراد أسرته ، ووصل نبأ سجنه إلى أبي عبد الله الشيعي داعيته في المغرب والذي نجح في دعوة قبيلة كتامة إليه ، فقام أبو عبد الله الشيعي بجمع من قبيلة كتامة لإنقاذ المهدي ، واستطاعت جموعه أن تهزم جيوش بني الأغلِب ، وأن يخرج المهدي ومن كان معه من السجن ، وأركب الإمام دابة قادها وهو ينادي في جموع كتامة : « هذا إمامكم ، هذا إمام الحق ، هذا هو المهدي » .

وبذلك دخل تاريخ الاسماعيلية في دور جديد ، عرفه مؤرخوهم وعلماءهم بأنه « دور الظهور » أي أن أئمة الاسماعيلية أظهروا أنفسهم بعد أن كانوا مستترين ، وجأهروا بدعوتهم وبارأئهم المذهبية بعد أن كانوا يدعون بها في الخفاء ، وكان الإمام في دور الستر يخفي شخصيته إلا عن كبار دعائه ، بل إمعانا في الخفاء كان يسمى الدعاة باسمه ، ويلقبهم بلقبه حتى لا يعرف أحد من هو صاحب هذا الاسم أو ذلك اللقب ، وكان يعمل في التجارة في مدينة سلمية ولا يبرحها ، بينما كان دعائه متبشرا بين الناس يبشرون بقرب ظهور المهدي صاحب الحق الشرعي في الإمامة دون أن يشيروا إلى اسمه أو إلى مكان إقامته . ويقال إن هذا التستر هو السبب الأول في خروج القرامطة عن طاعته ، فإنهم استطاعوا أن يعرفوا اسم الإمام وقابلهم الرجل صاحب هذا الاسم وبارك حركتهم ، ولما عادوا

إليه مرة أخرى وجدوا شخصاً آخر يحمل نفس الاسم وأشار إليه من حوله بأنه هو الإمام ، فشك زعماء القرامطة في الإمام وفي الدعوة نفسها ، وجاروا الإمام ودعوا إلى أنفسهم . وهذا ما حدث أيضاً للداعي أبي عبد الله الشيعي الذي مكن للاسماعيلية بين قبيلة زكتامة ، فإنه قبل سفره إلى بلاد المغرب زار الإمام بسامية ، فقابله شخص على أنه الإمام ، ولكن بعد ظهور المهدي بالمغرب رأى أبو عبد الله الشيعي أن المهدي ليس هو الإمام الذي قابله بسامية ، وتطرق الشك في نفسه إلى درجة أن أفضى بذلك إلى أخيه أبي العباس وبعض رؤساء كتامة ، وكادت تحدث ثورة لو لم يبادر المهدي بقتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس وأن يتخذ الثورة في سرعة عجيبة على نحو ما سندكره فيما بعد . وهذا الستر نفسه هو السبب الأول في شك كثير من المؤرخين في نسب أئمة الدولة الاسماعيلية الكبرى (الدولة الفاطمية) وفي شخصيتهم ، وكان سكوت مؤرخي وكتاب الاسماعيلية في دور الظهور الأول عن ذكر أئمة دور الستر من العوامل التي أعطت أعداءهم سلاحاً ماضياً يشهرونه ضدهم وهو الطعن في نسبهم ، والقول بأنهم أعدياء النسب ، حتى قيل إن هذا الإمام الإسماعيلي الذي ظهر ببلاد المغرب (عبيد الله المهدي) هو ابن رجل يهودي كان حداداً بسامية ، وترملت أمه ، فتزوجها أحد الأشراف العلويين وربى هذا الغلام ، فلما كبر ادعى لنفسه نسباً علوياً ، ودعا الناس إليه ، وقيل

كذلك إن عبيد الله المهدي من نسل عبد الله القداح الذي كان مولى
 جعفر الصادق ، وكان يقوم عنده على حفظ أواني المنزل ، وقد سأل
 بعض الدعاة المعز لدين الله عن نسبته إلى القداح فقال : نعم هو قاذح
 زناد الفكر ! ولم يصف المعز على ذلك شيئاً ، كثيراً ما تهكم
 المصريون بالفاطميين ونسب أئمتهم ، فمن ذلك أن الإمام الإسماعيلي
 العزيز بن المعز لدين الله صعّد المنبر في أول ولايته على مصر ، فوجد
 رقعة كتب عليها :

إنا سمعنا نسباً منكراً يتلى على المنبر في الجامع
 إن كنت فيما تدعى صادقاً فازكر أباً بعد الأب الرابع
 وإن تُرد تحقيق ما قلته فانسب لنا نفسك كالطائع
 أو فدع الأنساب مستورة وادخل بنا في النسب الواسع
 فإن أنساب بني هاشم يقصر عنها طمع الطامع

فقرأها العزيز ولم ينبس ببنت شفه . ولا ننسى أيضاً ما يرويه
 المصريون عن « سيف المعز وذهبه » كلما تحدثوا عن نسب الأئمة
 الإسماعيلية ، إذ ذهب المصريون إلى أن المعز لدين الله عندما انتقل
 إلى عاصمته القاهرة لأول مرة ، دخل عليه أشرف أهل مصر
 ووجهاؤها وعلمائها ، وسأله عن نسبه وحسبه ، فجرد سيفه
 وقال : هذا نسبي ، ثم نثر عليهم قطع الذهب وقال : هذا حسبي .
 فهكم المصريين وسخرتهم بالأئمة على هذا النحو دليل على شك
 المصريين في نسبهم ، والمعروف عن المصريين قوة الوعي ودقة

الحس والذكاء الذي يستطيع المصري به أن يدرك الأمور في سرعة وأن يعبر عما لا يروقه بالفكاهة تلو الفكاهة ، وسنرى كيف قاسى الفاطميون من نكات المصريين اللاذعة العميقة المعنى . إذن كان الستر من أكبر العوامل في شك الناس في نسب الاسماعيلية ، ومع ذلك كله لم يذكر عالم من علماء الاسماعيلية في هذه السنوات الأولى لظهور أمتهم شيئاً عن نسبهم أو عن أمتهم في دور الستر واكتفى الجميع بالقول بنسبهم إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي أخذ فيه أعداؤهم يرمونهم بكل موبقة ، وإذا تحدث المؤرخون عن أسماء أمتهم في دور الستر اختلفت رواياتهم واضطربت أقوالهم ، وذهب كل مؤرخ مذهباً يختلف عن الآخرين ، على أن أكثر المؤرخين يذكر كرون تسلسل الأئمة على هذا النحو : الحسن بن علي بن أبي طالب ، الحسين بن علي بن أبي طالب ، علي زين العابدين بن الحسين ، محمد الباقر بن علي زين العابدين ، جعفر الصادق بن محمد الباقر ، إسماعيل بن جعفر الصادق ، محمد بن إسماعيل ، عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، أحمد بن عبد الله ، الحسين بن أحمد وهو آخر أئمة دور الستر . وقد ذكرنا أن انخلاف شديد حول هذه الأسماء ، ولكن هذه هي أسماء الأئمة في أشهر الأقوال .

الفصل الثاني

دور الظهور

يقول مؤرخو الاسماعيلية إن الإمام عبید الله المهدي عند ما جاءته الأنباء بمؤامرة القرامطة ضده ، وعزمهم على قتله هو وأفراد أسرته وسلب كل أموالهم ، فكر طويلاً قبل هروبه من سلمية إلى أين يقصد ، لقد استقر رأيه على الفرار من القرامطة لأنه لا يستطيع أن يقاوم جمعهم ، فلم يكن عنده جيش يلاقي به القرامطة ، فكل الذين كانوا حوله هم عدة أفراد من الدعاة الذين كانوا يأخذون عنه علوم أهل البيت ونظام نشر الدعوة ، فلم يكونوا من رجال الحرب ، وكان معه أهل بيته وهؤلاء كانوا تجاراً ولم يشتركوا في حرب مع أعدائهم بل عاشوا في سلام ودعة طوال حياتهم ، لهذا كله لم يكن أمام عبید الله المهدي إلا أن ينجو هو وأفراد أسرته بحشاشة نفوسهم قبل أن يباغتهم القرامطة الذين دوخوا جيوش العباسيين وتغلبوا عليهم في عدة مواقع ، ولكن إلى أين يذهب المهدي ؟ استشار في ذلك بعض المقربين إليه من الدعاة والأقارب ، كان أمامه أن يهرب إلى اليمن حيث استطاع داعيته ابن حوشب أن ينجح نجاحاً ملحوظاً في نشر الدعوة الاسماعيلية وفي امتلاك

بعض القلائع والحصون على نحو ما ذكرناه من قبل ، وكان أمامه أن يرحل إلى بلاد المغرب حيث استطاع داعيته أبو عبد الله الشيعي أن ينجح في نشر الدعوة في قبيلة كتامة ، وأن يأخذ على شيوخ القبيلة العهد والميثاق بنصرة الإمام ، كانت اليمن والمغرب المنطقتين اللتين انتشر فيهما المذهب الاسماعيلي مما يحقق للإمام النفوذ والسلطان ، فكان علي المهدي أن يختار لهجرته أحد البلدين ، وكان المهدي ذكيا موهوبا كما كان سياسيا قديراً شأنه في ذلك شأن كل عظماء التاريخ الذين تمكنوا من تأسيس الدول ، أدرك بثاقب رأيه أن اليمن بعيد عن قلب العالم الإسلامي ، فمن الصعب أن تصلح اليمن مركزا لنشر الدعوة الاسماعيلية في جميع البلاد حسب ما كان يطمع فيه المهدي ويعمل له . كانت كل الظروف مهيأة للمهدي في اليمن أكثر مما كانت عليه بلاد المغرب ، وكان المهدي يعلم أن هجرته إلى المغرب محفوفة بأخطار جسيمة ، ولكنه كان يتطلع إلى المستقبل أكثر مما يتطلع إلى حاضره ، يحدوه الأمل في النجاح أكثر من تفكيره في الفشل ، فدفعه الأمل في النجاح في المستقبل إلى أن يختار المغرب داراً لهجرته من دون اليمن ، فسار إليها ، وقدر له النجاح فاستطاع أن يؤسس سنة ٢٩٧هـ تلك الدولة العتيدة التي عرفت في التاريخ باسم «الدولة الفاطمية» . وبالرغم من مظاهر نجاحه في تأسيس هذه الدولة فقد تعرضت مواهبه الفذة وقدرته إلى امتحانات عسيرة جداً في سياسته ،

ولا سيما في سياسته نحو قبائل البربر ، كانت أكثر قبائل البربر يتعصبون لمذهب مالك بن أنس السني ، وكان بعضهم يدين بمذهب الخوارج ، بينما كانت دعوته المذهبية تختلف عن المذهبين اللذين انتشرا بين قبائل شمال أفريقيا فكان من الطبيعي أن يتصارع المذهب الإسماعيلي الجديد مع المذهبين الآخرين ، أضف إلى ذلك كله أن قبائل البربر مثل جميع القبائل البدوية في كل مكان في العالم ، كانت لهم عقليتهم الخاصة وتقاليدهم الخاصة ، فربما قبلوا اليوم رأيا من الآراء وأيدوه بكل ما في وسعهم ، فإذا جاء الغد ، تركوا هذا الرأي لسبب تافه أو لغير سبب على الإطلاق ، فسياسة أمثال هذه القبائل البدوية من أصعب وأحق أنواع الحكم ولا سيما إذا كان الحاكم يريد فرض مذهب ديني يخالف ما عليه القبائل وما توارثوه من تقاليد دينية منذ قرون ، وهذه الضعوبات وجدها المهدي في تأسيسه للدولة الفاطمية الناشئة ، فبعد أن قامت كتامة وبعض قبائل أخرى بمساعدته وبهرتهم هذه الانتصارات الفجائية السريعة التي قوض بها دولة الأغالبة في أفريقيا ، نرى عددا من الثورات قامت بها القبائل البربرية ضده ، حتى إنه اضطر إلى أن يقتل داعيته أبا عبد الله الشيعي وأخاه أبا العباس الشيعي لأنهما شكيا في شخصيته وعملا على الخروج عن طاعته وحاولا إثارة الفتنة في قبيلة كتامة نفسها التي ناصرته المهدي ، فثارت كتامة ضد المهدي ، ولكنه تمكن من إخماد

هذه الثورة وغيرها من الثورات التي قامت ضده ، وعادت كتامة إلى طاعته صاغرة بحد السيف ، ثم ثارت مدينة أطرابلس سنة ٣٠٠ هـ ، فأسرع إلى قمعها بقتل زعماء الثوار ، وفي سنة ٣١٥ هـ ثار محمد بن خزر الزناتي ولكنه هزم ، ولعل أعنف هذه الثورات وأشدها خطراً تلك الثورة التي قادها أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الذي كاد يقضي على هذه الدولة الناشئة وأن يهزم جيوشها المرة بعد المرة ، كان أبو يزيد على مذهب الخوارج الد أعداء الشيعة فلما صمم على الثورة لم يقيم بها إلا بعد دراسة طويلة ، فأخذ يدعو لثورته سرّاً زهاء ثلاثة عشر سنة حتى تجمع حوله عدد كبير من مؤيديه ، وانتهر فرصة وفاة المهدي فجأه بالمصيان ، ونادى بالجهاد ، وظل يحارب الدولة ويهزم جيوشها حتى استطاع أن يحاصر عاصمة الفاطميين (المهديّة) التي بناها المهدي بإفريقية (تونس) ، ولما فشل أبو يزيد في الاستيلاء عليها ، بدأ نجمه في الأفول ، إلى أن استطاع الخليفة الثالث من الخلفاء الفاطميين أن يجمع ثورته وأن يقتله سنة ٣٣٥ هـ . فلو قدر النجاح لثورة أبي يزيد هذه لتغير وجه التاريخ ، ولما كان للاسماعيلية هذا الشأن في توسيع أرجاء مملكتهم وفي ازدياد عدد أتباعهم حتى إن أملاكهم بلغت من الاتساع ما لم تبلغه دولة إسلامية أخرى بعد عصر الفتوحات الكبرى ، فبئذ استطاع المهدي تأسيس دولته بالغرب . وضع لنفسه سياسة الاتجاه نحو بلاد المشرق ، وتوسيع رقعة مملكته

في البلاد التي تقع شرقي تونس ، وضع المهدي هذه السياسة التي أصبحت سياسة خلفاء الفاطميين من بعده ، وضموها نصب أعينهم جميعاً وهم لا يزالون في المغرب ، ولما تم لهم امتلاك مصر في عهد العزيز لدين الله رابع خلفائهم تطلعوا إلى فتح البلاد التي تلي مصر شرقاً عملاً بالسياسة التي رسمها لهم المهدي ، ومن هنا نستطيع أن نفهم سبب إلحاح عبيد الله المهدي في فتح مصر ليتخذها مركزاً لتحقيق ما كان يطمح إليه من التوسع إلى الشرق ، فقد بعث المهدي إلى مصر ثلاث حملات حربية لمحاولة فتحها وانتزاعها من أيدي الإخشيديين ، ولكن باءت هذه الحملات كلها بالفشل ، إذ أسرع العباسيون بإرسال نجدات قوية إلى مصر دحرت جيوش الفاطميين الحرارة ، وردتهم على أعقابهم بعد نجاحهم في الاستيلاء على الإسكندرية وبعض المدن المصرية الغربية ، ثم توقفت الحملات الحربية على مصر بسبب ثورات قبائل المغرب ضد الفاطميين ، ولكنهم لم يقلعوا عن التدابير التي تمكن لهم من تحقيق حلمهم الذي يرمي إلى التوسع في الاستيلاء على بلاد المشرق فإذا كان هتلر مستشار ألمانيا قد فخر بأنه أوجد نظام الطابور الخامس في البلاد التي أراد الاستيلاء عليها ، وعد عمله هذا تقليداً جديداً في السياسة والحرب ، وهلل له أصدقاؤه وخشيه أعدؤه ، وإذا كانت روسيا قد نجحت في بعض البلاد بفضل تنظيمات الخلايا الشيوعية ، فإن هذه التنظيمات التي تجرى في عصرنا الحديث لا تقاس بشيء

بالنسبة إلى تنظييات الإسماعيلية في الدعاية ، وكان ذلك منذ أكثر من ألف سنة ، وسنتحدث في كتابنا هذا عن التنظييات الإسماعيلية فقد فطن الإسماعيلية إلى الدعاية وما لها من نتائج وآثار لعلها تكون أقوى من الحملات الحربية ، وقد فشلت حملاتهم الأولى على مصر ، فأرسلوا إلى مصر حملة من الدعاة يبشرون بعقائد الإسماعيلية وفضائل الأئمة وقرب الخلاص من ظلم الحاكمين وجشع الإخشيديين ، ويمدون الناس بعمالة اجتماعية في ظل حكم إمام من نسل رسول الله (ص) .

ويذكر المؤرخون أسماء بعض هؤلاء الدعاة الذين كان لهم شأن في مصر قبل أن تفتح حربياً ، فمنهم الداعي فيروز وكان كبير دعائهم ، ولكنه نافق الأئمة وغدر بالإمام المهدي وترك مصر إلى اليمن حيث اتصل بعلي بن الفضل الذي نافق باليمن ، وقام بقيادة حملة الدعاية في مصر أيضاً الداعي أبو علي - وكان صهر فيروز ولكنه ظل على وفائه للمهدي - ثم ابنه محمد أبو الحسين ابن الداعي أبي علي ، وقد بلغ هذا الداعي أعلى مراتب الدعوة في عهد الأئمة المهدي والقائم والمنصور بالله والمعز لدين الله ، كذلك نسمع عن الداعي أبي جعفر بن نصر الذي كان له مكانة خاصة في نفوس المصريين ، وكان من جلساء كافور الإخشيد ، وكانت داره بالقسطنطينية مجمعاً للعلماء والعظماء ، ولا شك أنه كان يبيت فيهم آراءه وتعاليمه دون أن يخشى بطش كافور أو عيون الخلفاء العباسيين ، فبفضل جهود

هؤلاء الدعاة ، دخلت التعاليم الإسماعيلية مصر . وقبلها بعض
المصريين قبل أن تدخلها جيوش الميزدين الله سنة ٣٥٨ هـ بل
ذهب المؤرخون إلى أن كثيراً من المصريين من المسلمين والأقباط
كاتبوا المهدي لغزو مصر وبعضهم كتب يهجوهم وفي ذلك يقول
أحد الشعراء المصريين يهجو المهدي :

فمن أنت يا مهدي السفاهة والخنأ

أبين لي فقد حقت على وجهك الريب

فلو كنت من أولاد أحمد لم يغب

عن الناس ما تسمو إليه من النسب

ولو كنت منهم ما انتهكت محارماً

يذبون عنها بالأسنة والشهب

أبجت فروج المحصنات وبعث من

أصبت من الإسلام بيعك للجب

وكم مصحف حرقتَه فرماده

مثاره مسقى الريح من حيث ماتهب

كفرت بما فيه وبدلت آيه

وقضبت جبل الدين كفرةً فما انقضبت

وقال آخر في مكاتبة المصريين للمهدي :

وقد حشدوا مصر ودون مصر له خرط القتاد وأي خرط

وأقبل جاهلاً حتى تخطى وجاز بجهله حد التخطى
 بكتب جماعة قد كاتبوه من أقباط بمصر وغير قبطى
 وكل كاتبوه وناقفونا وكل فى البلاد له موطنى

كان ذلك كله قبل أن يتمكن القائد أبو الحسين جوهر
 الكاتب من أن يفتح مصر بجيوشه ، ومهما يكن من شيء فقد
 دخلت جيوش الشيعة الإسماعيلية مصر سنة ٣٥٨ هـ بقيادة جوهر
 الصقلى وأدال من دولة الإخشيديين ، وبنى مدينة القاهرة وشيد
 فيها الجامع الأزهر استعداداً لأن تكون هذه المدينة عاصمة ملك
 الفاطميين ومركزاً عاماً لقيادة دعوتهم ، حتى يستطيعوا أن يحققوا
 سياستهم فى الاتجاه نحو بلاد الشرق الإسلامى التى كانوا يتطلعون
 إلى الاستيلاء عليها ، وخاصة بغداد عاصمة الخلافة العباسية عدوتهم
 اللدود ، وكانت كل الظروف مهيأة لتحقيق حلمهم ، فالحالة
 السيئة التى كان عليها خلفاء بنى العباس إذ ذاك كانت من أهم
 الأسباب التى ساعدت على انتشار نفوذ الإسماعيلية فى البلاد
 الإسلامية ، فقد كان خلفاء بنى العباس ألعوبة فى أيدى قوادهم
 من الأتراك منذ استعان بهم المعتصم العباسى ثم جاء البويهيون ،
 وهم من الديلم وكانوا يبطنون التشيع ويتظاهرون به أحياناً ،
 واستولوا على مقاليد الحكم فى فارس والعراق ، فأصبح الخلفاء
 العباسيون لاحول ولا طول معهم سوى الدعاء باسمهم على المنابر ،
 أما السلطة الفعلية وتصريف أمر البلاد فكانت بأيدى البويهيين ،

وبجانب ذلك فقد انقسمت أملاك العباسيين إلى دويلات وإمارات صغيرة وحارب بعضها بعضاً ، وكان أمراء هذه الدويلات لا يبالون في قليل ولا كثير بالخلافة العباسية المريضة المتهاككة ، إنما اهتم كل أمير بنفسه وباستقرار الحكم لأبنائه من بعده ، وتوسيع رقعة دولته ولو كان ذلك كله على حساب الخليفة العباسي نفسه ، وكانت الشعوب في هذه الإمارات تتطلع إلى منقذ ينقذهم من الأمراء ، ويعمل على أن يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً ، أى أن هذه الشعوب المعذبة كانت تتطلع إلى المهدي المنتظر الذي سينشر العدل بين الناس ، وهذا هو أول عامل في الدعوة الشيعية عامة استغله دعاة الإسماعيلية المنبئين في كل مجتمع ، فنشروا بين الشعب ، أحاديث كثيرة عن عدل أئمة الإسماعيلية ، وأنهم ما قاموا بتأسيس دولتهم إلا لخير الإنسانية ورفاهية المجتمع ، مما جعل الناس في جميع البلاد الإسلامية ينظرون إلى خلفاء الدولة الفاطمية الفتية نظرهم إلى أملهم في الخلاص من شقائهم ، واعتنق كثير منهم المذهب الإسماعيلي لا إعجاباً منهم بالمعقيدة الإسماعيلية ، إنما لأملهم في أن يحكم الأئمة بلادهم فيسود فيها العدل والسلام ، وقويت روح الشيعة الإثني عشرية في العراق وفارس لوجود دولة شيعية تستطيع أن تحميهم وتساعدهم إن حاق بهم مكروه ، كما كان لوجود البويهيين أثر في قوة الشيعة وانتشار آرائهم ، ويقال إن البويهيين أنفسهم هموا بالدعوة للإمام الإسماعيلي

على منابر بغداد لولا أن ظروفاً سياسية خاصة منعتهم من ذلك ، كل هذه العوامل ساعدت أئمة الإسماعيلية على بسط سلطانهم على بلاد الشام والعرب واليمن ، كما كانت شمال أفريقيا من المحيط الأطلسي حتى برزخ السويس وجزيرة صقلية وجنوب إيطاليا تدين بطاعتهم وتكون أجزاء من إمبراطوريتهم ، وفي الوقت نفسه كان لهم أتباع عديدون منتشرون في بلاد فارس والهند ، وذلك كله بفضل جهود الدعاة الذين بعثوا بهم في كل مجتمع ، حتى إن الأمير نصر بن أحمد الساماني اعتنق مذهبهم على يد الداعي النسفي ، والملك أبا كاليبجار البويهى ملك فارس اعتنق هذا المذهب على يد الداعي المؤيد في الدين هبة الله بن موسى ، بل استطاع الفاطميون أن يستميلوا إليهم أبا الحارث البساسيري قائد القوات العباسية بالعراق ، فامتلك بغداد نفسها سنة ٤٥٠ هـ ، وخطب على منابرها باسم صاحب مصر الإمام الإسماعيلي المستنصر بالله ، وظلت الخطبة له في بغداد لمدة سنة كاملة ، انتشر فيها المذهب الإسماعيلي في العراق انتشاراً سريعاً واستجاب لدعوتهم أمير الحلة وأمير واسط وأمير الكوفة وأمير بلاد الجزيرة وغيرهم من أمراء العراق ، ولولا هزيمة الإسماعيلية الفاطميين أمام جيوش طغرل بك السلجوقي ، وتهاون الوزراء في مصر لأسباب شخصية محضة لا كتسح الإسماعيلية جميع البلاد الإسلامية في الشرق وأخضعوها لسلطانهم حتى جبال هيمالايا ، ولحقوا بذلك سياستهم

التقليدية التي رسمها مؤسس دولتهم عبيد الله المهدي . ولكن ظهور السلاجقة الأتراك وانتصارهم على جيوش الفاطميين حالا بينهم وبين أطعامهم في تحقيق حلمهم ، كما كان لظهور حركة الصليبيين في أوروبا وحشدهم الجموع الغفيرة لاستخلاص الأراضي المقدسة في فلسطين من أيدي المسلمين ، ثم طمعهم بعد ذلك في الاستيلاء على بعض البلاد الشامية التي كانت في قبضة الدولة الفاطمية ، كان لذلك أثر كبير في إضعاف نفوذ الإسماعيلية في العالم الإسلامي ، أضف إلى ذلك ما حل بمصر مركز دولتهم وقلبها النابض من محن ومجاعات وما ترتب على ذلك من ثورات أرت على الحياة الاقتصادية ، بحيث اضطر الإمام الإسماعيلي إلى أن يتقبل إحسان بعض المحسنات التي كانت تبعث إليه برغيفين كل يوم ، كما كان يستعير بغلة داعي الدعاة ليركبها وذلك لخلو قصوره من المأكل ومن الدواب ، فطمع بعض الأمراء في الاستقلال بإماراتهم . ومن الطريف حقاً أن تكون بلاد المغرب أول بلاد خلعت طاعة الإمام الإسماعيلي ، وأعدت مذهب أهل الجماعة والسنة ، مع أن بلاد المغرب كما رأينا من قبل كانت البلاد التي نصرت عبيد الله المهدي ، وساعدته في تأسيس دولته وبسط نفوذه . وقد أراد أحد وزراء الفاطميين بمصر أن يعاقب بلاد المغرب على تمردها وخروجها عن طاعة الفاطميين فبعث إليهم بجيش قوامه عرب بني هلال الذين كانوا يعيشون فساداً في البلاد

المصرية ويكثرون القتل والنهب دون خشية السلطان ، فخدمهم
 الوزير المصري وأرسلهم إلى المغرب ، وهناك كانت لهم وقائع
 وحوادث هي الأساس في تلك القصة الشعبية المعروفة « قصة
 أبي زيد الهلالي والزناقي خليفة » التي لا تزال تنشد إلى يومنا هذا .
 كذلك ضعفت هيبة الإمام الإسماعيلي في مصر عاصمة
 إمبراطوريتهم ، وقد ذكرنا من قبل كيف تهكم المصريون بنسبهم منذ
 قدومهم البلاد المصرية بالرغم من وجود عدد من المصريين رحبوا بهم
 واعتنقوا مذهبهم ، ولكن ظهرت حركة تأليه الحاكم بأمر الله
 على أيدي دعاة من الفرس وفدوا على مصر يبشرون بمقاتلتهم
 الإلحادية الجريئة ، وقام المصريون يناهضون هذه الآراء تارة
 بالاعتداء على دعاة التأليه حتى قتلوا أحدهم وفر الباقون من مصر خوفاً
 على حياتهم ، وتارة أخرى باستخدام المصريين سلاحهم التقليدي
 وهو التهكم والسخرية وإرسال النكتة بالإمام تلو النكتة الحاكم
 بأمر الله وفكرة تأليهه وبدعائه ، فأزمع الحاكم بأمر الله على أن
 ينتقم من المصريين فأحرق مدينة الفسطاط ، فزاد سخط المصريين
 على الأئمة الإسماعيلية ، وكثر تنذر المصريين بهم ، وطرحوا عقيدة
 الإسماعيلية من نفوسهم ، أو على الأقل كثر شكهم في العقائد
 الإسماعيلية ، كما أن الوزراء انتهزوا فرصة ضعف الأئمة الإسماعيلية
 واعتمادهم على الجنود المرتزقة أو على المماليك من السودان والأرمن
 والصقالبة فتلاعبوا بالأئمة وبمصالح البلاد ، وكثرت المنازعات

والمشاحنات على تولى منصب الوزارة ، فكان كل واحد من هؤلاء المستوزرين يعمل لمصلحته الشخصية دون اهتمام بمصلحة البلاد أو مراعاة للنظام القائم أو لإمام العقيدة التي دانوا بها إلى درجة أن هؤلاء الوزراء تلاعبوا بالعقيدة نفسها ، ولم يبالوا بها ، فكانوا يعينون الإمام الذي يريدونه حتى لو لم يكن له الحق - حسب العقيدة الإسماعيلية - في الإمامة ، فالعقيدة الإسماعيلية توجب تسلسل الإمامة في الأعتاب مع وجوب النص على من يتولى الإمامة من أولاد الإمام ، ولكن هذه العقيدة الأساسية التي قام عليها مذهب الإسماعيلية والتي تكونت على أساسها فرقة الإسماعيلية لم يأبه بها الأئمة أنفسهم ، فمن باب أولى أن يتلاعب بها الوزراء ، فقد حدث أن المعز لدين الله الإمام الرابع من أئمة دور الظهور نص على أن يليه ابنه عبد الله ، ولكن عبد الله توفى في حياة أبيه فعاد المعز ونص على ابنه العزيز دون أن يقيم وزناً للعقيدة الإسماعيلية ، وحدث كذلك أن الإمام المستنصر بالله نص على أن يتولى الإمامة بعده ابنه نزار ، ولكن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي الأرمني الجنس انتهمز فرصة وفاة المستنصر بالله سنة ٤٨٧ هـ وأعلن إمامة المستعلي بن المستنصر - وكان طفلاً صغيراً - وهو ابن أخت الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، وليس بغريب أن يتمكن الوزير صاحب النص عن حقه ويولى ابن أخته الصغير حتى يتمكن من فرض سلطانه فرضاً تاماً على الإمام وعلى البلاد بأسرها ،

ولم يكتف الوزير بإهمال نزار بن المستنصر صاحب الحق في الإمامة بل نراه يقبض عليه وعلى ابنه ويحبسهما في أحد حصون القاهرة ثم يبني عليهما حائطاً إلى أن توفيا ، الأمر الذي ترتب عليه أن عدداً كبيراً من الدعاة ومن أتباع المذهب الإسماعيلي أبوا أن يبايعوا المستعلى ، ولم يعترفوا بإقامته ونادوا بإمامة نزار وأبنائه من بعده ، وبذلك انقسمت الفرقة الإسماعيلية إلى فرقتين : فرقة الإسماعيلية النزارية أو الإسماعيلية الشرقية وفرقة الإسماعيلية المستعلية أو الإسماعيلية الغربية ، كما ترتب على ذلك أيضاً أن ازداد ضعف العقيدة الإسماعيلية في نفوس المصريين وازداد تهكمهم بالأئمة والوزراء مما سهل لصلاح الدين يوسف بن أيوب أن يمحوها من مصر على نحو ما سندكره .

انقسمت الإسماعيلية إذن إلى هاتين الفرقتين النزارية والمستعلية سنة ٤٨٧ هـ ، وكان بعض أتباع الدعوة الإسماعيلية قد انشقوا عنها سنة ٤٠٨ هـ وكونوا لأنفسهم مذهباً خاصاً بعيداً كل البعد عن العقائد الإسماعيلية ، فقد ذكرنا أن بعض الدعاة من الفرس وفدوا على مصر ونادوا بالوهية الحاكم بأمر الله ، وكان على رأس هؤلاء الدعاة حمزة بن أحمد والدرزي وخوتكين ، وقلنا إن المصريين ثاروا ضد هؤلاء الدعاة ثورة عنيفة وقتلوا خوتكين وبعض أتباعه ، فهرب الدرزي وحمزة إلى بلاد الشام حيث استطاعا أن يجدا شيئاً من النجاح في جذب بعض قبائل بني كلب إلى آرائهما ، وأوجدا

فرقة خاصة منشقة عن فرقة الإسماعيلية هي الفرقة التي تعرف الآن بالدروز المقيمين في سورية ولبنان وشمال فلسطين .

فالدروز إذن فرقة كانت من الإسماعيلية ثم اتخذت لنفسها عقائد وآراء خالفت بها العقائد والآراء الإسماعيلية إلى درجة أن دعاة الإسماعيلية أنفسهم اضطروا إلى الرد على دعاة تأليه الحاكم الذين أنشأوا فرقة الدروز ، بل اضطروا أكبر عالم من علماء المذهب الإسماعيلي حينذاك (أى في سنة ٤٠٨ هـ) ، وهو أحمد حميد الدين الكرمانى إلى أن يترك مقره بالعراق ، وأن يفتد إلى مصر ليهدى ثورة دعاة الإسماعيلية فيها ضد فكرة تأليه الحاكم بأمر الله ، وأن يفتد آراء دعاة التأليه ، وكتب في ذلك رسالته المعروفة «بالرسالة الواعظة»^(١) ، يثبت فيها كفر وإلحاد كل من تحدته نفسه بتأليه الحاكم بأمر الله ، ولم يترك أحمد حميد الدين الكرمانى مصر إلا بعد قتل الحاكم بأمر الله ، فانشقاق الدرزية عن الإسماعيلية هو أول انقسام حدث في الطائفة الإسماعيلية ، وكان الانقسام الثانى هو ظهور فرقة النزارية وفرقة المستعلية ، ولكن هناك ملاحظة جديرة بأن نسجلها الآن لما لها من أهمية في تاريخ الطائفة الإسماعيلية : تلك أن إمام الإسماعيلية منذ ظهور المهدي سنة ٢٩٧ هـ إلى وفاة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ ، كان معترفا به عند

(١) نشرت هذه الرسالة بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة في المجلد

كل أتباع المذهب الإسماعيلي . ولكن عقائد الإسماعيلية كانت مختلفة باختلاف البلاد ، فالمعاند لم تكن موحدة ، وكان الدعاة أنفسهم مختلفين في آرائهم ومعتقداتهم ، مما يجعلنا نقول إن المذهب الإسماعيلي لم يكن واحداً في أى وقت من الأوقات ، وسنفصل ذلك في حديثنا عن عقائد الإسماعيلية .

أما أئمة دور الظهور حتى الانقسام الثاني فهم :

١ - عبيد الله المهدي . صاحب الظهور بالمغرب : استولى

على رقادة في ٤ ربيع الثاني سنة ٢٩٧ هـ .

٢ - القائم بأمر الله أبو القاسم محمد : تولى الإمامة في ١٤

ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ .

٢ - المنصور بالله أبو طاهر، إسماعيل : تولى الإمامة في ١٣

شوال سنة ٣٣٤ هـ .

٤ - المعز لدين الله أبو تميم معد : تولى الإمامة أول

ذى القعدة سنة ٣٤١ هـ ، وفي عهده فتحت مصر

في شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، وانتقل إليها في رمضان سنة

٣٦٢ هـ وأصبحت قاعدة ملكه .

٥ - العزيز بالله أبو منصور نزار : تولى الإمامة في ربيع الثاني

سنة ٣٦٥ هـ .

٦ - الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور : تولى الإمامة في ٢٩

رمضان سنة ٣٨٦ هـ .

٧ - الظاهر أبو الحسن علي : تولى الإمامة في ١٠
ذى الحجة سنة ٤١١ هـ .

٨ - المستنصر بالله أبو تميم معد : تولى الإمامة في ١٥ شعبان
سنة ٤٢٧ هـ وتوفى سنة ٤٨٧ هـ .

هؤلاء هم الأئمة الذين كانوا قبل انقسام الطائفة ، ولنتحدث
الآن عن الفرقتين الإسماعيلية الغربية والإسماعيلية الشرقية ،
ولن نتحدث عن الدرروز لأنهم بعدوا عن الطائفة الإسماعيلية .

الفصل الثالث الإسماعيلية الغربية

الإسماعيلية الغربية أو الإسماعيلية المستعلية هم الذين اعترفوا بإمامة المستعلي بن المستنصر الذي نادى به خاله الوزير الأفضل بن بدر الجمالي إماماً سنة ٤٨٧ هـ ، وهؤلاء هم إسماعيلية مصر واليمن وبعض بلاد الشام ، وقد ذكرنا أن المستعلي تولى الإمامة وهو صغير السن إذ كان في العشرين من عمره ، فترك شئون الحكم وسياسة الدولة إلى خاله الأفضل ، وعكف على اللهو والمجون ، وفي عهده بدأت الحروب الصليبية ، وحاول الأفضل أن يرد الحملة الصليبية ، فخرج من مصر على رأس الجيش لمحاربة الصليبيين ، ولكن الجيش المصرى تمرد ، فاضطر الأفضل إلى العودة إلى مصر دون حرب ، وترك الصليبيين يحققون مطامعهم ، فاستطاعوا أن ينتزعوا البلدة تلو البلدة ، ولم يأبه الإمام الإسماعيلي أو وزيره بخطر المستعمرين الأوربيين ، وما أسسوه من إمارات في بلاد الشام ، كذلك نقول عن الإمام الإسماعيلي خليفة المستعلي وهو ابنه الأمر بأحكام الله الذي ولي الإمامة وله من العمر خمس سنوات ، وكان في كفالة الوزير الأفضل ثم في كفالة أحمد بن الأفضل الذين استبدوا بالسلطان في البلاد ، وتركوا الإمام الأمر للهوه ، ثم

تولى الوزير مأمون البطاحي فاستبد بالسلطة كلها ، وكان الأمر قد شب وكثر عبثه ، فكانت هوايته المفضلة هي الجرى وراء الفتيات الأعرابيات ، وقصته مع الفتاة البدوية التي أولع بها وتزوجها وبنى لها هودجاً في جزيرة الروضة أصبحت من القصص الشعبية التي يرويها الشعب المصرى مثل قصص ألف ليلة وليلة .

على أن الإمام الأمر قتله الإسماعيلية النزارية سنة ٥٢٤ هـ ، وهو يعبر الجسر المؤدى إلى جزيرة الروضة لزيارة معشوقته البدوية ، وكان مقتله بدء تطور جديد في تاريخ الإسماعيلية ، ذلك أن الإمام الأمر لم ينجب ولداً يتولى الأمر بعده ، فمِن عمه الحافظ عبد المجيد ابن المستنصر إماماً بالنيابة أو « إماماً مستودعاً » على حسب اصطلاح الإسماعيلية ، ولكن سرعان ما دعا الحافظ عبد المجيد لنفسه بالإمامة الكاملة بالرغم من مجافة ذلك للعقيدة الإسماعيلية وللتقاليد السابقة ، ولكن العقيدة الإسماعيلية كان قد ضعف أمرها في نفوس الناس ولا سيما في مصر ، ولذلك لم يأبه المصريون إن كان الحافظ عبد المجيد إماماً بالنيابة أو إماماً حقاً ، فقد هان أمر الإمامة والعقيدة في نظرهم منذ عهد الحاكم بأمر الله ، ولم يعد المصريون ينظرون إلى قدسية الإمام إلا إذا استثنينا منهم هؤلاء الوصوليين الذين يريدون تحقيق مآربهم الشخصية ، وخاصة جماعة المتصلين بالقصر ، وقد بلغ من استهانة المصريين بالإمام الحافظ أنهم حاصروه وطالبوه بقتل ابنه الحسن بن الحافظ وإلا قتلوا

الحافظ نفسه ، فاضطر إلى أن يجيهم إلى طلبهم . ولعل هذه القصة تعطينا فكرة عن مدى ضعف الإمامة الإسماعيلية في مصر ، ولم يكن للمذهب الإسماعيلي - في عهد إمامته أو عهد إمامة من تبعه - أتباع إلا من اعتنق الدعوة الإسماعيلية في عدن ومصر فقط ، إذ فقد هؤلاء الأئمة أتباعهم في البلاد الأخرى . ثم استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يقوض دولتهم من مصر سنة ٥٦٧ هـ ، ويعيد الخطبة في مصر للخليفة المستضيء العباسي ، وبذلك انقرض هذا الفرع من الطائفة ولم يعد له وجود بعد ذلك .

هكذا كان أمر الإسماعيلية المستعلية في مصر وعدن ، ولكن كان للإسماعيلية المستعلية شأن آخر في اليمن في عهد الصليحيين الذين رأوا رأياً في الإمامة بعد اغتيال الأمر يخالف رأى المصريين ، واتخذوا لأنفسهم إماماً غير الذي اتخذهُ المصريون ، فكونوا بذلك فرقة إسماعيلية مستعلية جديدة هي التي استمرت بعد أن انقرضت فرقة الإسماعيلية المستعلية بمصر على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧ هـ ، ولا تزال هذه الفرقة المستعلية الجديدة قائمة إلى اليوم باسم « الإسماعيلية الطيبية » وباسم « الإسماعيلية البهرة » ، وقبل أن نتحدث عن هذه الفرقة نرى أو نلم في إيجاز بشيء عن الصليحيين الذين أوجدوا هذه الفرقة (١) .

(١) للأستاذ المحقق الدكتور حسين فيض الله الهمداني بحث مستفيض تمتع بعنوان « الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن » (طبع مكتبة مصر بانفجالة)

رأينا كيف أسس منصور اليمن دولة إسلامية في بلاد اليمن
 ولكن هذه الدولة لم تعش طويلاً إذ سرعان ما عادت اليمن مرة
 أخرى إلى حكم القبائل المختلفة المتنافرة المتشاحنة . وكانت أكثر
 هذه القبائل تدين بالولاء للخلافة العباسية ، على أن عدداً من
 اليمنيين كان لا يزال على ولائه للإمام الإسماعيلي ، واستمر الأمر
 كذلك حتى كانت سنة ٤٣٩ هـ حين قام الداعي علي بن محمد الصليحي
 بثورة استطاع بها أن يخضع بعض قلاع وحصون اليمن لسلطانه
 وأن يدعو بها للإمام الإسماعيلي المستنصر بالله صاحب مصر ،
 واستمر في غزو مدن اليمن حتى دانت له كلها في سنة ٤٥٥ هـ ،
 بل استمر في فتوحاته حتى دخل مكة للكرمة ، وكانت قد خرجت
 عن طاعة الإسماعيليين ، وتهاياً لفتح العراق وانتزاعه من أيدي
 العباسيين لولا أنه قتل سنة ٤٥٩ هـ . ففي مدة حكمه القصيرة التي
 تبلغ عشرين عاماً استطاع أن يوحد بلاد اليمن تحت حكمه وأن يضم
 إليها بلاد الحجاز ، كما أعاد الدعوة الإسماعيلية إلى اليمن واستمر
 الحكم في أهل بيته باسم الإمام الإسماعيلي بمصر ، إلى أن تولى
 السيدة الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية الحكم وفي عهدها
 توفي الإمام الأمر بأحكام الله وتولى المحافظ عبد المجيد على نحو
 ما ذكرناه من قبل ، ولكن الصليحيين رفضوا الاعتراف
 بالمحافظ لأنه ليس له حق في الإمامة ، وزعموا أن إحدى زوجات
 الإمام الأمر المقتول كانت حاملاً ، ثم إنها وضعت طفلاً ذكرًا

اسمه الطيب بن الأمر ، فالإمامة إذن لهذا الطفل الذي خاف عليه أحد الدعاة فأخفاه عن الحافظ وأرسله في «مقطف» إلى الملكة الحرّة أروى الصليحية باليمن ، وهذه الملكة أخفته وجعلت نفسها كفيلة عليه ونائبة عنه في تولى شؤون الدعوة الإسماعيلية ، واتخذت لنفسها لقباً (كفيلة الإمام المستور الطيب بن الأمر) .

معنى هذا أن الصليحيين باليمن أوجدوا لهم دعوة جديدة : هي الدعوة الطيبية نسبة إلى الطيب بن الأمر الطفل الذي دخل دور الستر ، بحيث أصبحنا لا نعرف شيئاً عن الأئمة المستورين منذ اعتراف الصليحيين بإمامة الطيب ، ولم يذكر أحد من المؤرخين أسماء هؤلاء الأئمة . وفي اعتقادي أن قصة الطيب هذه أقرب إلى الأساطير الخيالية منها إلى الواقع التاريخي ، فإن أحداً من المؤرخين لم يذكر وجود الطيب بن الأمر إلا ما نراه في كتب دعائه . أما ما يقال عن وجود سجل وجهه إلى الملكة الحرّة من الأمر قبل مقتله فإنه في رأيي سجل موضوع قصد به إلباس القصة ثوب الحقيقة حتى يتسنى للصليحيين ومن تبعهم الاعتقاد بحقيقة إمامة الطيب ، والصليحيون ودعاة الدعوة الطيبية بعدهم هم وحدهم الذين تحدثوا عن الطيب ، بينما سكت المؤرخون عنه فلم يذكرها حتى مجرد اسمه في كتبهم ، بل ذهب المؤرخون إلى أن زوجة الأمر التي كانت حاملاً عند موته وضعت أنثى ، ولكن الصليحيين قالوا بل وضعت ذكراً هو الطيب ، ونحن نتساءل عن سبب ستره

مع أن الدولة كانت دولة الصليحيين والسلطان في أيديهم فلم قبلوا أن يدخلوا إمامهم الستر وأن يخفوه ما داموا يدعون له ويدينون بطاعته وإمامته ، يخيل إليّ أن الصليحيين وضعوا قصة الأمر هذه ، حتى يتخذوها ذريعة للانفصال من سلطان الفاطميين الديني وأن يستقلوا بالنفوذ الديني والسياسي معاً . وأوحى دهاء الملكة الحرة وذاكؤها الشديد وحرصها على أن تجمع في يدها السلطتين السياسية والدينية إلى أنها كافل الإمام المستور وحقته الكبرى ، وسار على نهجها كل داع مطلق في الدعوة إلى الآن . ومهما يكن من شيء فقد انقضت الدولة الصليحية في سنة ٥١١ هـ ولم يبق أتباع الدعوة الطيبية بأي نشاط سياسي بعد ذلك ، بل ركنوا إلى التجارة وعاشوا في محيط خاص بهم ، وكان كثير منهم يتخذ التقية فلا يظهر إسماعيليته بالرغم من وجود داعية لهم ينوب عن إمامهم المستور في تصريف أمورهم الدينية . وقد هيأت التجارة التقليدية بين اليمن والهند فرصة لنشر الدعوة الإسماعيلية الطيبية في الهند ، ولا سيما في ولاية جوجرات جنوب بومباي ، وأقبل جماعة من الهندوس على اعتناق هذه الدعوة حتى كثر عددهم هناك ، وعرفت الدعوة بينهم باسم البهرة ، وكلمة البهرة كلمة هندية قديمة معناها التاجر .

ولكن هذه الدعوة الطيبية انقسمت في القرن العاشر الهجري إلى فرقتين : فرقة البهرة الداودية وفرقة البهرة السليمانية ويرجع

هذا الانقسام إلى الخلاف على من يتولى مرتبة الداعي المطلق للطائفة ، فالفرقة الداوودية تنتسب إلى الداعي قطب شاه داوود ، وهو الداعي السابع والعشرون من سلسلة دعاة الفرقة المستعلية الطيبية المتوفى سنة ١٠٢١ هـ ، والفرقة السلمانية تنتسب إلى الداعي سليمان بن حسن الذي أبي أتباعه الاعتراف بداوود واعترفوا بسليمان في سنة ٩٩٧ هـ داعية لهم . على أن مركز دعوة الفرقة الداوودية انتقل من اليمن إلى الهند في القرن العاشر الهجري ، وداعيتهم الآن هو طاهر سيف الدين . ويعدّ الداعي الحادي والخمسين من سلسلة دعاة الدعوة الطيبية ويقم في مدينة بومباي ، وهو كما ذكرنا برتبة الداعي المطلق ، وهي مرتبة وراثية تنتقل من أب إلى ابن ، وصاحبها يتمتع بنفس الصفات التي كان يوصف بها الأئمة ، على أنها صفات مكتسبة وليست ذاتية . وكذلك داعي الفرقة السلمانية على بن محسن الذي يقيم في اليمن ، ولذلك يتمتع الداعيان الداوودي والسلماني بسلطة روحية تامة على أتباعهما ، هي نفس سلطة الأئمة في العصور الوسطى ، ونستطيع أن ندرك مدى هذه السلطة الروحية التي للداعيين إذا عرفنا أن طائفة البهرة بفرعها متعصبون أشد التعصب لمذهبهم وعقيدتهم ، ومن ثم حافظوا على تقاليدهم التي ورثوها منذ عهد الصليحيين محافظة تامة ، ولا يقبلون تبديلا لتلك التقاليد أو تطورها مع تطور الزمن ، حتى إنك تعرف في سهولة رجل البهرة من ملابسه ومن لحيته

وتتميز المرأة من البهرة في الطريق من (الحبرة) التي ترتديها والنقاب الكثيف الذي تخفى به وجهها ، ويتخذون أما كن خاصة لهم للعبادة لا يدخلها غيرهم أطلقوا عليها اسم « جامع خانة » فهم لا يؤدون فريضة الصلاة إلا في « الجامع خانة » ويرفضون أن يقيموا الصلاة في المساجد التي لغيرهم من المسلمين ، وذلك إمعاناً منهم في ستر عقائدهم المذهبية ، والحرص الشديد على أن لا يعرفها غيرهم من الناس ، مع أنهم شديدو التمسك بفرائض الدين وأركانها وأن عقيدتهم في « الظاهر » لا تختلف عن عقائد غيرهم من المسلمين . أما عقيدتهم في « الباطن » فهي بعيدة كل البعد عن عقيدة أهل السنة والجماعة ، فهم مثلاً يؤدون الصلاة كما يؤديها المسلمون ويحافظون على حدودها وأركانها كالمسلمين تماماً ، ولكنهم يقولون إن صلاتهم هذه للإمام الإسماعيلي المستور من نسل الطيب بن الأمر ! ويذهبون إلى مكة المكرمة لتأدية الحج في موسمهم شأنهم في ذلك شأن جميع المسلمين ، ولكنهم يقولون إن الكعبة التي يطوف حولها الحجيج هي رمز على الإمام ، وهكذا على نحو ما سنتحدث عنه في الفصل الخاص بالعقائد في هذا الكتاب .

ويجب أن نعترف هنا بهذه الخدمة الجليلة التي أدتها طائفة البهرة للتاريخ الإسماعيلي بفضل محافظتها على التقاليد الإسماعيلية ، إذ استطاع دعاؤها أن يحتفظوا بشرط كبير من المؤلفات الدينية

والأدبية التي وضعها علماء ودعاة الدعوة في مصر في العصر الفاطمي ، بينما ضاعت هذه الكتب من مصر نفسها ، وكذلك حافظوا على الكتب التي وضعها دعاة فارس، واليمن في العصر الفاطمي ، فلولا احتفاظ دعاة البهرة بهذه الكتب الفاطمية لما عرفنا شيئاً عن حقيقة الدعوة الإسماعيلية إلا عن طريق كتب أعداء الإسماعيلية ، ولكن مما يؤسف له حقاً أن محافظتهم على التقاليد والقول بستر عقيدتهم أدى بهم إلى عدم السماح لأحد بالوصول إلى كتبهم التي يقدسونها ، حتى إنهم غالوا في ستر هذه الكتب ، فلم يكن الدعاة أنفسهم يسمحون لأبناء الطائفة بالاطلاع على هذه الكتب ، ومنذ ثلاثة أعوام فقط أذن داعي البهرة بالهند لأفراد الطائفة فقط بالاطلاع على هذه الكتب ، ومع هذا الحرص الشديد الذي فرضوه على كتبهم فقد تسرب بعضها إلى مكتبات مصر وأوروبا وأمريكا ، وقام بعض الباحثين بنشر قدر لا بأس به من مخطوطاتهم في مصر وفي غير مصر ، فلا أدري سبب تمسكهم بالحرص على ستر كتبهم بعد أن نشرت هذه الكتب وعرفت أسرار عقائدهم . ومن الخير أن أذكر هنا أهم الكتب الإسماعيلية التي نشرت في مصر فقط :

١ - كتاب دعائم الإسلام للقاضي أبي حنيفة النعمان

ابن محمد المغربي « نشره الأستاذ آصف علي أصغر

فيضي » .

- ٢ - كتاب الهداية الأمرية ، منسوب للإمام الأمر بأحكام الله « نشره الأستاذ آصف على أصغر فيضى » .
- ٣ - كتاب الكشف ، منسوب لجعفر بن منصور اليمى « نشره المستشرق ستروتمان » .
- ٤ - كتاب الزينة ، للداعى أبى حاتم الرازى « نشره الأستاذ الدكتور حسين فيض الله الهمدانى » .
- ٥ - استتار الإمام ، للداعى أحمد بن إبراهيم النيسابورى « نشره المستشرق . و . ايفانوف » .
- ٦ - سيرة جعفر بن الحاجب ، للداعى أحمد بن إبراهيم النيسابورى « نشره المستشرق . و . ايفانوف » .
- ٧ - السجلات المستنصرية (رسائل المستنصر بالله إلى الصليحيين) « نشره الدكتور عبد المنعم ماجد » .
- ٨ - المجالس المستنصرية ، للداعى « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .
- ٩ - الهمة فى آداب أتباع الأئمة ، للقاضى النعمان بن محمد المغربى « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .
- ١٠ - رسالة الرشد والهداية ، للداعى منصور اليمى « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .
- ١١ - ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .

- ١٢ - سيرة المؤيد في الدين داعى الدعاة (كتبها المؤيد نفسه) « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .
- ١٣ - راحة العقل ، للداعى أحمد حميد الدين الكرمانى « نشره الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلمى » .
- ١٤ - الرسالة الواعظة ، للداعى أحمد حميد الدين الكرمانى « نشر الدكتور محمد كامل حسين » .
- ١٥ - الرسالة الدرية ، للداعى أحمد حميد الدين الكرمانى « نشر الدكتور محمد كامل حسين » .
- ١٦ - رسالة النظم ، للداعى أحمد حميد الدين الكرمانى « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .
- ١٧ - ديوان الأمير تميم بن المعز لدين الله « نشر محمد كامل حسين وآخرين » .
- ١٨ - سيرة الأستاذ جوذر ، لأبى منصور العزبى « نشره محمد كامل حسين والدكتور محمد عبد الهادى شعيره » .
- هذه هى أشهر الكتب الإسماعيلية التى نشرت فى مصر فى السنوات العشر الأخيرة فقط ، ومنها ندرك أن دراسة الإسماعيلية دخلت فى دور جديد بعد تسرب الكتب التى يحتفظ بها البهرة فى مكنتات دعائهم إلى الخارج ، وقد نشط أخيراً الإسماعيلية

وغير الإسماعيلية بالشام في نشر كتبهم وخاصة ما ألف منها في العصر الفاطمي ، فقد علمت أخيراً أن أحد أساتذة جامعة دمشق ينشر كتاب « تأويل دعائم الإسلام » ، وأن صديقنا الأستاذ عارف تامر يجمع الآن المخطوطات الإسماعيلية بسورية لإعدادها للنشر ، وفي العراق نشر الأستاذ عباس العزاوي كتاب « سمط الحقائق » للداعي اليميني علي بن حنظلة ، ونشر الأستاذ محمد وحيد ميرزا أستاذ اللغة العربية بجامعة لكنهو بالهند كتاب الاختصار للقاضي النعمان بن محمد ، وهكذا يوالى الباحثون نشر مخطوطات الإسماعيلية مما سهل دراسة تاريخ وعقائد الإسماعيلية ، وذلك كله بفضل محافظة البهرة على ما تركه أجدادهم في مصر واليمن . وفضل آخر نذكره لدعاة البهرة الداوودية بالهند : ذلك أنهم أنشأوا لهم في مدينة سورات بالهند مدرسة لتدريس اللغة العربية والعقائد الإسماعيلية أطلقوا عليها أخيراً اسم « الجامعة السيفية » . ولا أغالى إذا قلت إن علماء البهرة في الهند أقدر من الهند على التحدث باللغة العربية وفهمها ، وقد اعتاد « طاهر سيف الدين » داعي البهرة الداوودية أن يلقي بنفسه محاضرات على أتباعه في شهر رمضان من كل عام باللغة العربية ، وتطبع هذه المحاضرات في مجلدات باسم « الرسالة الرمضانية » فلولاً محافظة البهرة على تقاليدهم القديمة واهتمامهم بآثار من سبقوهم لصاعت اللغة العربية بينهم ، حقيقة أن طائفة البهرة في الهند يتحدثون اللغة الجوجراتية أو اللغة الأوردوية ،

ولكن العلماء منهم يجيدون العربية إجابة تامة ، وطائفة البهرة بفرعيها يحترفون التجارة وخاصة تجارة الحدايد وأدوات المعمار والمنسوجات ، ولا يزيد عددهم في العالم على مائتي ألف نسمة تراهم متفرقين في بلاد الهند والباكستان وعدن ، وفي جبال حراز باليمن طائفة منهم يطلق عليهم الآن القرامطة أو الباطنية ولا يعرف عددهم تماما ، والبهرة أينما وجدوا يمثلون الأقليات أظهر تمثيل من ناحية الوحدة القومية التي تربطهم بعضهم ببعض وروح التعاطف والمساعدة مما جعلهم في حالة مالية يحسددهم عليها الكثيرون ، فلا تجد بينهم فقيراً أو محتاجاً ، وإذا حلت بأحدهم كارثة هب الباقون لمساعدته ، وهم جميعاً يقدسون داعيهم المطلق تقديساً تاماً ويطيعونه طاعة عمياء ، وقد استغل المستعمر الإنجليزي هذه الظاهرة فمنح الدعاة من أسلاف « طاهر سيف الدين » نفوذاً ضخماً عريضاً في الهند ، إذ ترك لهم الإنجليز كل السلطة على أتباعهم حتى إنهم كان في استطاعتهم أن يحرموا الموتى من الدفن في مدافن الطائفة ، وكان لهم أن ينبشوا قبورهم انتقاماً من أحد الأفراد ممن سولت له نفسه الخروج عن طاعتهم ، ولهم أن يستولوا على ما يتركه الميت من ذخائر ونفائس دون أن يجرؤ أحد على مخالفة أمرهم ، واستغل الداعي سلطانه هذا لتنمية ثروته ومضاعفتها ، فكان يفرض ضرائب عجيبة على أتباعه ، فمثلاً كل من يخالف التقاليد كان يدفع ضريبة للداعي ، فإذا أراد

أحد أفراد الطائفة أن يخلق لحيته فعلية أن يدفع ضريبة للداعي ،
وإذا أراد فرد أن يرتدى الزي الأوربي فعلية أن يدفع ضريبة للداعي ،
وكل من يذهب إلى الحج عليه أن يدفع الضريبة وأن ينزل في
الفنادق التي أقامها الداعي في مكة والمدينة وأما كن الزيارة بالعراق
وتعرف « بالبهرة خانة » . أما الآن بعد استقلال الهند فقد أصبح
الداعي مواطناً عادياً خاضعاً للقانون شأنه في ذلك شأن أي فرد
في الدولة ، وتخلص نفوذه السابق فأصبح لا يخشاه أتباعه كما كانوا
يخشونه من قبل ، وإن كانوا لا يزالون يقدسونه . ومع هذا النفوذ المطلق
الذي كان للداعي قبل استقلال الهند ، فقد انشق من رياسته وخلع
طاعته بعض أفراد نعموا منه بمض تصرفاته المالية وكونوا لأنفسهم فرقة
صغيرة ، نذكر من هؤلاء علي بن إبراهيم (المتوفى سنة ١٦٢٤ م)
الذي كون فرقة العلوية ، ومنهم فرقة الناجوشية الذين يقيمون
في ولاية بارودا بالهند ، وهذه الفرقة كانوا في الأصل من براهمة
الهند ثم اعتنقوا الإسماعيلية الطيبية حوالي سنة ١٧٨٩ م ، ولذلك
نراهم يتبعون في معيشتهم نفس التقاليد التي عند البراهمة ومنها
عدم أكل اللحوم ، وفرقة الهبتية أتباع هبة الله بن إسماعيل
ابن عبد الرسول المتوفى في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي
وهؤلاء يقيمون الآن في أوجاف بالهند ، وفرقة مهدي باغ أتباع
عبد الحسين بن جوانجي المتوفى في أواخر القرن التاسع عشر
الميلادي ويقيمون الآن في ناجبور بالهند ، وغير ذلك من الفرق

الصغيرة التي انشقت عن الفرقة الطيبية الداوودية ، ولكن أتباع هذه الفرق قليلو العدد جداً ، وليس لهم أى نشاط سياسى أو اجتماعى إلا فى حدود فرقهم فقط .

هكذا كان شأن الدعوة الإسماعيلية الغربية أو الاسماعيلية المستعملة التي كان مركزها مصر ، ومع ذلك لا يوجد الآن من المصريين إسماعيلي واحد بالرغم من أن الإسماعيلية حكموا مصر زهاء قرنين من الزمان ، ولكن زال من مصر كل ما بذره الإسماعيلية فيها ، ويخيل إلى أن المصريين لم يعتنقوا هذه الدعوة عن عقيدة يدينون بها ، إنما اعتنقها بعض المصريين عن رهبة أو عن رغبة عاجلة ، ثم سرعان ما عادوا إلى صوابهم فطرحوا هذه العقيدة ، وعادوا إلى رأى أهل السنة والجماعة ، ومع ذلك كله فلا تزال بعض الرواسب الإسماعيلية فى مصر ولا سيما عند الدهماء والعامة ، وستتحدث عنها فى فصل العقائد الإسماعيلية .

أما أئمة الدعوة الإسماعيلية فى مصر فهم :

١ - المستعلى أبو القاسم أحمد : تولى فى ذى الحجة سنة

٤٨٧ هـ .

٢ - الأمر أبو على المنصور : تولى فى صفر سنة ٤٩٥ هـ .

٣ - المحافظ أبو اليمون عبد المجيد : تولى فى المحرم سنة

٥٥٢٥ هـ .

٤ - الظافر أبو المنصور إسماعيل : تولى فى جمادى الآخرة

سنة ٥٤٤ هـ .

٥ - الفأز أبو القاسم عيسى : تولى فى صفر سنة ٥٤٩ هـ .

٦ - العاضد أبو محمد عبد الله : تولى فى رجب سنة ٥٥٥ هـ .

والذين يعترف بهم البهرة من هؤلاء الأئمة هم المستعلى والامر
 فقط ثم الطيب بن الامر الذى دخل الستر سنة ٥٢٥ هـ . والأئمة
 المستورون من نسله إلى الآن . وهؤلاء الأئمة الذين فى الستر
 لا نعرف شيئاً عنهم حتى إن أسماءهم غير معروفة ، وعلماء البهرة
 أنفسهم لا يعرفونهم .

الفصل الرابع الإسماعيلية الشرقية في فارس

كان للإسماعيلية الشرقية أو الإسماعيلية النزارية شأن خطير يختلف تمام الاختلاف عما كان للإسماعيلية الغربية ، فقد قام النزارية بدور كبير في السياسة في إيران والهند والشام ، وخشى بطشهم الملوك والأمراء ، كما كان لهم أثر يذكر في الحروب الصليبية ، وذلك كله يرجع إلى النظام الجديد الذي أوجدوه في فرقهم وهو نظام الفدائيين .

ذكرنا أن الوزير في مصر الأفضل بن بدر الجمالي ولي ابن أخته المستعلي إمامة الإسماعيلية ، فثار صاحب الحق الشرعي في الإمامة وهو نزار بن المستنصر ، ولكن فشلت ثورته وقبض عليه هو وابنه وقتلا ؛ وكان بمصر داعية من فارس وهو الحسن ابن الصباح ، جاء إليها حاجاً إلى إمامه المستنصر بالله وذلك قبل موته ببضع سنين ، وسمع منه أن نزاراً هو صاحب الأمر من بعده ، فلما عاد إلى بلاده من مصر ، جمع حوله عدداً من الفلاحين الإيرانيين ، واستجاب له كل من شعر بظلم السلاجقة الأتراك وسوء حكمهم ، ولا سيما ما كان من ملكشاه السلجوقي الذي كان

غشوماً ظالماً إلى أبعد حد ، فقد اضطهد الناس جميعاً ولا سيما طائفة الشيعة وخاصة الإسماعيلية منهم اضطهاداً شديداً لم يعرف من قبل ، وقتل منهم عدداً كبيراً ، مما جعل الناس في عهده تراودهم أحلام الشيعة الذهبية القديمة من تمنى وجود إمام يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، فجاءهم الحسن بن الصباح يبشر بقرب تحقيق هذا الحلم ، فاستطاع في فترة وجيزة وبمن التف حوله من جموع الفلاحين أن يصارعوا أعداء الإسماعيلية صراعاً عنيفاً جداً .

وأتخذ الحسن بن الصباح مبدأ القتل وسيلة لتحقيق أهدافه ، فكان يأمر أتباعه باغتيال كل من يقف في طريقه أو يخاصمه ، حتى استطاع أن يمتلك قلعة ألموت (جنوبي بحر قزوين) ، وأن يؤسس بها الدولة الإسماعيلية التي عرفت في التاريخ بأسماء متعددة مثل الإسماعيلية - الزارية - الباطنية - السبعية - التعليمية - الحشيشية - الملاحدة - وعرفت عند كتاب الغرب باسم السفاكين . ووضع لهذه الدولة نظماً تختلف تمام الاختلاف عن النظم التي رأيناها عند الإسماعيلية الغربية أو الإسماعيلية في العصر الفاطمي . وقطع الحسن بن الصباح علاقته بأئمة الإسماعيلية الغربية واعتبرهم من أعدائه الألداء ، بل عمل على إزالتهم من الوجود ، فأرسل الفدائيين لاغتيالهم ، كما كان يفتال جميع أعدائه ، حتى ضج الناس من كثرة قتلاه ، وخاف كل واحد على حياته ، ويكفي أن أنقل

هنا ما ذكره المؤرخ عماد الدين الأصفهاني في كتابه « تاريخ دولة آل سلجوق » عن الحالة العصيبة التي أصابت المجتمع الإسلامي في تلك الأيام وكيف كان الإنسان لا يأمن على نفسه أو ذويه من بغتات الفدائيين ، حتى إن الأخ لم يكن يثق بأخيه أو الأب بابنه ، فهو يقول : « فنابت النوائب وظهرت المعجائب ، وفارق الجمهور من بيننا جماعة نشأوا على طباعنا ، وكانوا معنا في المكتب ، وأخذوا حظاً وافراً من الفقه والأدب ، وكان بينهم رجل من أهل الرأي ساح في العالم ، وكانت صناعته الكتابة ، نخفي أمره حتى ظهر وقام ، فأقام من الفتنة كل قيامة واستولى في مدة قريبة على حصون وقلاع معينة وبدأ في القتل والفتك بأمور شنيعة وخفيت عن الناس أحوالهم . . وأخافوا السبل وأجالوا على الأكارب الأجل وكان الواحد منهم يهجم على كثير ويعلم أنه يقتل فيقتله غيلة ، ولم يجد أحد من الملوك في حفظ نفسه منهم حيلة » ، هذا ما قاله المؤرخ العماد الأصفهاني الذي عاش في أيام هلع الملوك والأمراء من الفدائيين الذين أنشأهم الحسن بن الصباح ، فمن هو الحسن بن الصباح هذا الذي أوقع الرعب في نفوس الناس إلى هذا الحد .

الحسن بن الصباح :

ولد الحسن بن الصباح في مدينة الري (وفي قول آخر في مدينة قم بفارس) حوالي سنة ٤٣٠ هـ في أسرة اتخذت التشيع

على مذهب الاثنى عشرية مذهباً لها ، وكان الشيعة عامة مضطهدين
فأخذوا التقية وأظهروا تمذهبهم بالمذهب السنى بين الناس حتى
لا يحقق بهم الأضرار ، وعلى هذا النحو فعل والد الحسن بن
الصباح ، إذ أظهر تسننه وأرسل ابنه الحسن إلى نيسابور لتلقى
العلم على الإمام موفق الدين النيسابورى السنى المذهب الذى عرف
بين الخاصة والعامة فى ذلك الوقت بأن ما من أحد تتلمذ عليه
إلا أقبلت عليه الدنيا ووفق فى مستقبل حياته توفيقاً يحسد عليه ،
وأثناء طلب الحسن العلم فى نيسابور اتخذ أصدقاء له ولكنه اصطفى
منهم اثنين أصبح لهما شأن كبير فيما بعد هما الوزير نظام الملك
والشاعر المتصوف عمر بن الحيام ، واستطاع نظام الملك أن
يساعد الحسن بن الصباح فألحقه فى وظيفة بديوان الكتابة فى
بلاط الملك ملكشاه ، وسرعان ما أصبح ذا حظوة لدى السلطان
فترقى سريعاً فى وظائف البلاط ، إلا أن ملكشاه وموظفيه
فطنوا إلى مطامع الحسن بن الصباح وأساليبه العنيفة التى يتبعها
للووصول إلى أغراضه ، ثم حدث بينه وبين صديقه نظام الملك
خلاف على شىء من المال فكان ذلك سبباً فى طرده من بلاد
ملكشاه .

ويحدثنا المؤرخ الفارسى علاء الدين الجوينى فى كتابه
« جهان گشای » أنه نقل عن سيرة الحسن بن الصباح التى

كتبها عن نفسه أنه قال عن نشأته الأولى وعن اعتناقه المذهب
الإسماعيلي :

« منذ طفولتي بل منذ السابعة من عمري كان جل اهتمامي
تلقى العلوم والمعارف ، والتزود بكل ما أستطيعه منها في سبيل
توسيع مداركي ، وكنت كأبائي قد نشأت على المذهب
الاثني عشري في التشيع ، ولم أكن أرى في غيره طريقاً للخلاص
من آفات العالم ، ولكن حدث أن تعرفت في شباني إلى أحد
دعاة الاسماعيلية الفاطميين ، فكنت أجادله جدالاً عنيفاً ، وأخذ
كل واحد منا يشيد بما هو عليه من عقائد مذهبية وآراء دينية ،
إلا أن حججه الدامغة تركت عندي أثراً قوياً جداً ، ثم افترقت
عن الداعي قبل أن أعتنق مذهبه ، وبعد قليل أصابني مرض
ألزمني الفراش ، فخشيت أن تحتظني يد المنون قبل أن أتطهر
باعتناق المذهب الاسماعيلي إذ اعتزمت على اعتناقه بتأثير مناقشاتي
مع الداعي ، ولما عوفيت وتعرفت إلى أبي نجم السراج ، رغبت
إليه في أن يزيدني حديثاً عن مذهبه ، وأخذت أفكر تفكيراً
عميقاً في تعاليم هذا المذهب ، ثم قدر لي أن أتعرف بالداعي مؤمن ،
وكان موفداً إلى مدينة الري من قبل عبد الملك بن عطاش داعي
الدعاة في العراقيين (أي في العراق العجمي والعراق العربي)
فتوسلت إليه أن يقبل مني البيعة للخليفة الفاطمي بمصر ، وأن
يأخذ عليّ العهود والمواثيق ، فتردد الداعي ثم أجابني إلى طلبي

وبذلك دخلت الدعوة الاسماعيلية وصرت واحداً من أتباع الإمام الفاطمي بمصر ، ولما وفد عبد الملك بن عطاش داعي الدعاة إلى الري مثلت بين يديه ، ولما وقف على آرائه واختبر استعدادي ، عهد إلى بيث الدعوة ، وبذلك أصبحت داعياً اسماعيلياً ، ثم وجهني بقوله : « عليك بالوفود على القاهرة لتنعم بخدمة مولانا الإمام المستنصر » ولما غادر عبد الملك بن عطاش الري في طريقه إلى أصبهان ، كنت أنا أيضاً في طريقى إلى القاهرة .

هكذا اعتنق الحسن بن الصباح مذهب الإسماعيلية ، وجعله داعي الدعوة عبد الملك بن عطاش داعياً للمذهب ، بل أمره بالوفود إلى القاهرة ليستقى علوم الدعوة عن شيوخها الذين كانوا حول الإمام ثم لمقابلة الإمام نفسه ، وهذه المقابلة أحد أركان العقيدة الاسماعيلية ، بل هي التأويل الباطني للحج عندهم ، فالحج الظاهر هو زيارة بيت الله الحرام ، أما الحج الباطن فهو زيارة الإمام ، ومهما يكن من شيء فإن اختيار ابن عطاش له ليكون داعياً دليل على ما كان يتمتع به الحسن الصباح من صفات خلقية وعقلية أهله لأن يكون داعياً للمذهب ، فلم يكن من السهل أن يصل كل اسماعيلي إلى هذه المرتبة الروحية عندهم ، فقد وضعوا شروطاً خاصة لمن يتولى الدعوة توافرت كلها في الحسن بن الصباح ، وسنتحدث عن ذلك في الفصل الذي نعقده لشرح نظم الدعوة .

وصل الحسن بن الصباح إلى القاهرة سنة ٤٧١ هـ ، وكان

طول الطريق يعنى نفسه أن يأخذ علوم الدعوة الإسماعيلية عن المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازى الذى كان في مرتبة داعى الدعوة وحجة الإمام ، وهى مرتبة لم يصل إليها في تاريخ الاسماعيلية إلا عدة أفراد فقط . ولكن المؤيد توفى قبل أن يصل ابن الصباح إلى القاهرة ، ووجد ابن الصباح كتب المؤيد وتلاميذه فاشتدت صلته بهم ، ويخيل إلى أنه لم يجد من الوزير في مصر « بدر الجمالى » ما كان يؤمله من ترحيب ، بل ظهر تبرم الوزير لتمام ابن الصباح في مصر ، ولا سيما أنه بهر كل من اتصل بهم بحدة ذكائه وتوقد ذهنه ، وما أظهره من إخلاص لإمامة المستنصر بالله واستعداده أن يضحي بنفسه في سبيل الإمام ، فغشى الوزير بدر الجمالى منه وعمل جاهداً على إخراجه من مصر ، فبدأ الوزير يدبر المؤامرات للإيقاع بابن الصباح ، فأوغر أولاً إلى رجاله أن يوغروا صدر ابن الصباح حتى يخطئ ، فتكون عند الوزير ذريعة لإلقاء القبض عليه والزج به في السجن ، ولكن ابن الصباح كان حذراً أشد الحذر من مثل هذه الدسائس والمؤامرات التى كانت تحاك ضده ، كما أن بعض أصدقائه نصحوه بأن يضاعف حذره ، وأن ينجو بحشاشة نفسه بالهرب من دسائس الوزير « بدر الجمالى » فأثر الحسن بن الصباح السلامة وهرب من مصر بعد أن قضى بها زهاء عام ونصف عام فقط ، لم يقابل إمامه خلالها إلا مرة واحدة فقط ، وفي هذه المقابلة الوحيدة عرف أن

إمامه المستنصر نص على أن يكون ابنه نزار إماماً من بعده .
 تنقل الحسن بن الصباح بعد أن ترك مصر في بلاد الشام
 والعراق وخوزستان ويزد ، وكان يدعو للمذهب الاسماعيلي في كل
 بلد نزل به ، فاستجاب له عدد كبير من الخلق . وكان يفكر
 طول وقته في طريقة يخلص بها إمامه المستنصر بالله الفاطمي مما
 كان يعانيه من تغلب وزيره بدر الجمالي عليه واستئنائه بالسلطة
 من دونه ، كان ابن الصباح يريد الانتقام لإمامه من هذا الوزير
 والانتقام لنفسه أيضاً من هذا الرجل الذي كاد له وتآمر عليه حتى
 اضطره إلى الهروب من مصر ، وهداه تفكيره إلى ضرورة القيام
 بعمل حاسم سريع وهو تأسيس دولة في فارس ينتقل إليها الإمام
 المستنصر بالله ويتخذها مركزاً له وللدعوة الاسماعيلية بدلا من
 مصر ، فأعد لمشروعه هذا عدته ، ورسم الخطوات التي يجب أن
 تتبع لتحقيقه ، فأكثر من اجتذاب الجماهير المتعطشة إلى العدل
 والتي ضاقت بها الحياة من طغيان حكم السلجوقيين الأتراك ،
 واختار عدداً من الدعاة ذوي المواهب الفذة في المجادلة وأرسلهم
 إلى القلاع والحصون التي في جنوب بحر قزوين ، وتمكن هؤلاء
 الدعاة من أن يدخلوا عدداً كبيراً من سكان هذه القلاع والحصون
 في الدعوة الاسماعيلية ولا سيما طبقة الجند ، وكان ممن استجاب
 له جنود قلعة آلموت (ومعناها عش المقاب) وهي قلعة منيعة
 على جبل وحوطها وهاد بحيث لا يبلغها الأعداء إلا بشق الأنفس ،

ولناعة هذه القلعة ركز ابن الصباح جهوده لامتلاكها ، فاستخدم عنصر الدعوة أولاً للوصول إلى هدفه ، فلما نجح دعائه في تحويل جنود القلعة إلى المذهب الاسماعيلي ، أوعز إلى دعائه أن يوجهوا إليه دعوة لزيارتهم ، فوجهت إليه الدعوة بين مظاهر الفرح ، وذهب ابن الصباح إلى القلعة متنكراً منتحلاً اسماً غير اسمه ، ولم يعرفه أحد من أتباعه في القلعة سوى الدعاة فقط ، أما غير الدعاة فكان يتظاهر أمامهم بأنه نائب عن ابن الصباح جاء ليتفقد أحوالهم قبل أن يزورهم ابن الصباح . قضى ابن الصباح عدة أيام في تنكره هذا وهو يدرس القلعة دراسة دقيقة ويتبين معالمها ، ويفحص حصونها وأحوال الناس بها ، فلما عرف كل ما كان يريده أظهر شخصيته ، وطلب من حاكم القلعة أن يسلمها له نظير مبلغ معين من المال يتسلمه من حاكم مدينة الدامغان (بجنوبي قزوین) ، وكان حاكم الدامغان ممن دخل المذهب الاسماعيلي سراً وكان يأتمر بأوامر الداعي ابن الصباح سراً بالرغم من أنه كان من عمال السلجوقيين ، فلم يستطع حاكم قلعة آلموت المقاومة عندما علم أن الجنود الذين كان يعتمد عليهم أصبحوا طوع إرادة ابن الصباح ، ولذلك سلم القلعة سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ودعا فيها ابن الصباح باسم المستنصر بالله إمام الاسماعيلية في مصر ، وبذلك دخلت الاسماعيلية في فارس في دور جديد منذ استطاع ابن الصباح أن يستولى على قلعة آلموت ، إذ عمل على توسيع رقعة دولته

الجديدة ، وقد ساعده الحظ إذ مات ملكشاه السلطان السلجوقي
عدو الاسماعيلية اللدود بعد الاستيلاء على قلعة آلموت بستتين ،
ومزقت أملاك السلجوقيين من بعده ، فضعفوا وهان أمرهم في
الوقت الذي اشتدت فيه شوكة الاسماعيلية في فارس ، واستطاع
ابن الصباح أن يضم عدة حصون وقلاع إلى دولته ، فحقق بذلك
الشرط الأول من حلمه ، وهو تأسيس دولة إسماعيلية في فارس ،
وأراد أن يحقق الشرط الثاني من هذا الحلم وهو استدعاء الإمام
المستنصر ليتولى أمور الدولة في فارس ، ولكن جاءت الأخبار
بموت المستنصر سنة ٤٨٧ هـ والدعاء في مصر بإمامة المستعلي بن
المستنصر من دون صاحب الحق الشرعي في الإمامة وهو نزار بن
المستنصر ، فثار الحسن بن الصباح وأبى الاعتراف بالمستعلي ،
وخطب باسم نزار ، وأرسل بعض الفدائيين إلى مصر لإحضار
نزار أو أحد أبنائه إلى آلموت ، ولكن الوزير في مصر قتل
نزاراً وابنه ، واستطاع الفدائيون أن يستصحبوا ابناً آخر لنزار
إلى آلموت ، وهناك أخفاه الحسن بن الصباح حتى تأتي فرصة
مناسبة يظهره فيها ، وبقتل نزار أصبح الحسن بن الصباح صاحب
الأمر في الدعوة الاسماعيلية الجديدة وهي الدعوة النزارية ، دون
أن يدعى الإمامة وإن كان العقل المدبر واليد الفعالة لجميع الحوادث
التي كانت تجري في العالم الإسلامي في ذلك العصر ، اعتذر عن
مقابلة الناس وعكف على القراءة والكتابة ، ومن منزله كانت

تخرج الأوامر والرسائل إلى دعايته وإلى الذين اختارهم لتنفيذ سياسته دون أن يقابلهم ، حتى قيل إنه لم يشاهد خارج منزله في آلموت سوى مرتين فقط ، وهنا أذكر أحد أوامره مما كان له أثر كبير في أن تنسج حوله قصص خيالية طريفة ومنها ما ظهر على الشاشة البيضاء ، فقد أصدر ابن الصباح أمراً بأن تزرع سفوح الجبل الذي بأعلاه قلعة آلموت ، فكان منظر الجبل بعد أن كسته الخضرة وأينعت فيه الزهور سبباً في هذه القصة التي رواها الرحالة ماركو بولو البندقي في القرن الثالث عشر الميلادي وهي قصة « جنة شيخ الجبل » . فقد ذهب ماركو بولو إلى أن « شيخ الجبل » - أي الحسن بن الصباح - أنشأ في واد يقع بين جبلين حديقة فيحاء فسيحة غرس فيها جميع أنواع الزهور وأشجار الفاكهة ، وجعل فيها مقصورات ذات قباب بديعة الشكل وزخرفها بنقوش ذهبية ، وجعل في هذه الحديقة أنهاراً من خمر وأخرى من عسل وثالثة من لبن ، وأقام فيها الحور العين والولدان المخلدن ، والجميع يلهون بالموسيقى والغناء والرقص ، وذلك كله لفتنة أتباعه بأن هذه هي الجنة التي وعد الله بها المتقين ، وأن باستطاعة شيخ الجبل أن يدخل جنته هذه من يشاء ، ويحرم منها من يشاء . ولذلك تقانى في طاعته وامتثال أوامره ، ولم يكن يسمح لأحد بدخولها إلا طبقة الفدائيين فقط . هذه القصة كانت مثاراً لأحاديث كثيرة عن الحسن بن الصباح وجنته ، كما كانت اللهمة لعدد كبير من

كتاب القصة للكتابة في هذا الموضوع . وصدق القصة عدد من أعداء الحسن بن الصباح ، ولعل السبب الذي من أجله صدق الناس هذه القصة الخرافية وحاولوا إثبات صحتها لمن شك فيها هو نظام الفدائيين الذي أوجده الحسن بن الصباح لأول مرة في التاريخ ؛ ففي زيارة الحسن بن الصباح لمصر شاهد في القصر الصغير الفاطمي عدة حجرات كان يقيم بها شبان أحداث السن هم أبناء الأمراء وكبار رجال الدولة الفاطمية ، جمعهم الإمام الفاطمي في قصره ليربيهم تربية خاصة حتى يصطنعهم في حكم دولته بعد أن يبلغوا سن الرجال ، وكان اعتماد الإمام الفاطمي في الحكم على هؤلاء الذين نشأوا في قصره تحت رعايته وتعلموا فنون الفروسية والسياسة والدعاية في القصر الفاطمي على أيدي أخصائين مهرة في هذه الفنون بإشراف الإمام نفسه ، رأى ابن الصباح هؤلاء الشبان فأعجبه نظامهم وتربيتهم ، وعرف بذكائه ودهائه كيف يقتبس نفس نظامهم في تدريب الشباب على أعمال تحقق أهدافه ويستعين بهم في القضاء على أعدائه ، فلما تم له امتلاك قلعة ألموت جمع إليه طائفة صالحة من الأطفال من أبناء الدعاة والمستجيبين المعروفين بغيرتهم للاسماعيلية واستعدادهم للتضحية في سبيل مذهبهم ، وأخذ في تدريب هؤلاء الأطفال على الطاعة العمياء والإيمان بكل ما يقوله لهم ، ثم بث فيهم حب التضحية في سبيل العقيدة والإمام ولما اشتد ساعدتهم أخذ يدرّبهم على استعمال الأسلحة المعروفة في تلك الأيام ولا سيما

الخناجر ، أضف إلى ذلك كله أنه كان يعلمهم كيف يخفون أمر أنفسهم وأمر من معهم ، بحيث لا يبوح أحد بسر الجماعة التي ينتمى إليها ، فإذا قبض عليه أحد الأعداء فلا يبوح بكلمة واحدة ، بل يجب عليه أن يقتل نفسه قبل أن يضطر إلى أن يتفوه بكلمة واحدة ؛ وكان ابن الصباح صارما في تنشئة هؤلاء الأطفال على هذا النحو ، قاسياً عليهم أشد القسوة حتى استطاع أن ينجح في إعداد طائفة من الفدائيين أفزعوا العالم الإسلامي كله ، وجماعة الصليبيين أيضاً حتى إن الكتاب الغربيين أطلقوا على الاسماعيلية الزارية اسم « السفاكين » لما قام به الفدائيون إبان الحروب الصليبية .

أما المؤرخون من الشرقيين (الفرس والعرب) فأطلقوا على هذه الفرقة عدة أسماء منها « الحشيشيين » ، وقالوا إن السبب في هذا الاسم أن الحسن بن الصباح كان يخبز الفدائيين بمادة « الحشيشة » وأنه عودهم على تعاطي هذه المادة بحيث جعلهم مدمنين ولا يستطيعون الحياة بدونها ، فكان يطلب منهم القيام بهذه الأعمال الخطيرة نظير حصولهم على الحشيشة ، فإذا نفذوا أوامره أعطاهم الحشيشة وأدخلهم جنته ، وكل هذه الأقوال خرافية قالها أعداؤهم عنهم ، والحقيقة تخالف ذلك مخالفة تامة ، فمن المعروف أن مدمن الحشيشة جبان لا يستطيع أن يقوم بالأعمال الخطيرة التي كان يقوم بها الفدائيون من قتل الأعداء أو قتل

نفسه إذا فشل في مهمته ، والحشيشة تشل التفكير وتخد العقل وتجعل المدمن يهذى ويبوح بأشياء وأسرار ربما حاول أن يكتمها ، بينما الفدائي الاسماعيلي كان يمتاز بالفطنة والكياسة والدقة التامة في كل أعماله وتصرفاته ، وتقدير موقفه تقديراً يحقق له النجاح مع شدة الحرص على الكتمان ، وهذا كله لا يتفق مع الإدمان على الحشيشة ، مما جعل الكتاب والمؤرخين المحدثين لا يصدقون قصة الحشيشة كما لم يصدقوا قصة الجنة ، بل كتبوا الفصول الطويلة عن الفدائيين والدور الذي قاموا به ضد السلجوقيين و ضد الاسماعيلية الغربية في مصر ، كانوا يفتالون كل من تحدته نفسه بعداء الاسماعيلية الشرقية ، ولا سيما الملوك والأمراء والوزراء ، ويقال إن أول من اغتاله الفدائيون هو الوزير السلجوقي نظام الملك - زميل الحسن بن الصباح في الدراسة - الذي كان يدبر الحملات التأديبية التي كان يشنها السلاجقة ضد الاسماعيلية ، وتوالت ضربات الفدائيين للأمرء السلجوقيين ورجال دولتهم حتى شاع الذعر في أرجاء البلاد ، وكثر الحديث عن الفدائيين وأعمال البطولة التي يقومون بها ، بل كان الفدائيون من عوامل انتشار نفوذ الإسماعيلية بين الجند والشعب ، وكان الأمير السلجوقي يستعين بالحسن بن الصباح للقضاء على عدوله ، أبو يسانع ابن الصباح حتى يسلم بمحشاشة نفسه خوفاً من بطشه ، ومع ذلك كله فقد كان بعض أمراء السلجوقيين يعمثون بجيوشهم

لمحاربة الإسماعيلية ، فكانت جيوشهم ترد مدحورة مهزومة حتى اضطر السلطان سنجر السلجوقي إلى مهادنة الإسماعيلية وعقد صلح معهم خوفاً منهم على نفسه بعد أن استيقظ من نومه في الصباح فوجد خنجراً بجوار فراشه ، الأمر الذي أفرعه ؛ وعلم أنه لا حياة له مع عدائه للإسماعيلية ، ولذلك أرسل وفداً إلى الحسن بن الصباح لعقد صلح معه .

ومما روى في هذا الصدد أن وفد السلجوقيين في المفاوضات عاد إلى السلجوقي وأخذ كل واحد منهم يقص عليه بعض ما أذهله من أمر زعيم الإسماعيلية وطاعة طائفته له ، من ذلك أنه أمر أحد أتباعه أن يعمد خنجراً في صدره ليقتل نفسه ، فنفذ الفدائي هذا الأمر دون تردد ، وأنه طلب من فدائي آخر أن يلقي بنفسه من نافذة الحصن إلى الهاوية ، ففعل الفدائي في الحال ما أمر به دون خوف ولا وجل ، كل هذا وأمثاله أدخل الرعب في نفس السلطان السلجوقي فبادر بعقد الصلح حتى يطمئن إلى حياته ، وبعد هذا الصلح ساد الهدوء بعض الشيء بعد أن استمرت الحروب بين الإسماعيلية والسلاجقة زهاء ثلاثين سنة . أما عن عدائه للإسماعيلية الغربية في مصر ، فقد ذكرنا أن الحسن ابن الصباح لم ينس أن ينتقم لإمامه تزار الذي قتل بمصر ، لهذا أرسل الفدائيين لقتل الإمام الأمر بن المستعلي الإمام الإسماعيلي في مصر ، بل كان الحسن بن الصباح ومن جاء بعده من « شيوخ

الجبل « سبياً في هذه المؤامرات العديدة التي دبرت بمصر في
أواخر العصر الفاطمي مما أضعف الدولة الفاطمية الاسماعيلية
إلى أن قوض صلاح الدين يوسف بن أيوب أركانها .

هكذا كان الحسن بن الصباح يعمل على بسط نفوذه ، ونشر
دعوته بين قوم يضمرون العداء الشديد لطائفة الاسماعيلية ،
وإزداد عداؤهم وسخطهم على الاسماعيلية بسبب سياسة الحسن
ابن الصباح التي كانت تقوم على الاغتيال وإراقة الدماء . وبجانب
هذه السياسة الدموية التي نهجها ابن الصباح زاه قد اتبع سياسة
أخرى هي أقرب ما تكون إلى سياسة الحرب الباردة المعروفة
أيامنا هذه ، إذ كان يرسل دعائه لمناظرة ومجادلة أصحاب المذاهب
الأخرى أمام الناس ، ودعاة الاسماعيلية عرفوا منذ عهودهم الأولى
أنهم أقدر الناس حجة وألسنهم فصاحة وأكثرهم موهبة في
الجدال ، لأنهم مرنوا على ذلك كله ، وأهلوا له حتى أصبحوا
ذوي كفاية في الجدل ، فاستغل الحسن بن الصباح مقدرة دعائه
فبعث بهم إلى علماء وفقهاء أهل السنة والشيعة الإمامية والزيدية
لمناظرتهم أمام الجماهير ، وكان غرضه من ذلك كله تشكيك
الجماهير فيما هم عليه من عقائد مذهبية فيسهل بعد ذلك جذبهم
إلى مذهبه الاسماعيلي ، ثم السخرية بعلم العلماء والفقهاء وانتقاص
قدرهم أمام الناس الذين اعتادوا احترامهم لعلمهم وأخذ أمور
دينهم عنهم ، فترتب على ذلك أن قام عدد كبير من علماء أهل

السنة والجماعة والشيعة الإمامية والزيدية بوضع كتب خاصة في الطعن على معتقدات الاسماعيليه دون أن يجروا على مناظرة دعاة الاسماعيليه ، فالإمام الغزالي وابن رزام وابن نصر الشماس وغيرهم من العلماء لهم كتب في الطعن على الاسماعيليه ، فاضطر الاسماعيليه إلى وضع كتب في الرد على هؤلاء العلماء ، والحق أن هذه المجادلات والمناظرات مع الاسماعيليه لم تكن جديدة على عهد ابن الصباح ، بل كانت قديمة عرفها الاسماعيليه ودعاتهم قبل أن يظهر المهدي بالمغرب .

ولكن ابن الصباح استغل هذه التقاليد الاسماعيليه القديمه في حروبه ضد أعداء مذهبه حرباً هي أقرب شيء إلى ما نراه اليوم بين الدول من حرب باردة قوامها الدعاية والتسابق العلمي . عاش ابن الصباح متصوفاً زاهداً متعبداً ، فكان مثالا للرجل المنصرف إلى العبادة مع ما كان عليه من رغبة في سفك الدماء وقتل كل من يخالفه ، وامتدت به الحياة وكلها ملوثة بدماء من أمر باغتيالهم ، ويظهر أنه في أيامه الأخيرة قد بلغ به أمر شرارته لسفك الدماء مبلغاً كبيراً لدرجة أنه قتل ولديه ، وادعى أمام أتباعه أنه قتلها غيرة على الدين والعقيدة ، ذهب إلى أنه قتل ابنه الأكبر لأنه اشترك مع آخرين في قتل شيخ مشايخ قوهستان ، وقتل ابنه الثاني لأنه شرب الخمر ، والعقيدة الاسماعيليه تتشدد في تحريم الخمر كما نص القرآن الكريم ، ثم نرى ابن الصباح يهجر زوجته وينقطع إلى

وخذته ، غير أنه لا وجد أنه ليس له وريث من عقبه يخلفه في حكم
 الاسماعيلية استدعى إليه في آلموت اثنين من أشد الناس إخلاصاً
 له ولدعوته وهما كيايزرك وأبو علي داعي الدعاة في قزوين ، وجعل
 وصيته إليهما من بعده أن يتولى أحدهما الزعامة الروحية للدعوة
 ويتولى الثاني الأمور الدنيوية وقيادة الفدائيين ، ففصل بذلك بين
 قيادة الدين وجعلها لأبي علي الداعي ، وبين قيادة الدنيا وجعلها
 لكيايزرك . وتوفي الحسن بن الصباح سنة ٥١٨ هـ وهو في
 نحو التسعين من عمره ، صرف منها زهاء سبعين عاما وهو يجد
 ويكافح في تأسيس الدولة الاسماعيلية الشرقية التي طبعها بهذا
 الطابع الذي عرفت به في التاريخ ، وجعل لها هذه الشهرة التاريخية
 عند الشرقيين والغربيين ، واستطاع أن يمتلك عدداً كبيراً من
 القلاع والحصون في فارس وأن ينشر دعوته بين عدد كبير من الناس .
 كان لموت الحسن بن الصباح صدى بعيد الأثر في علاقة
 الاسماعيلية بالسلجوقيين ، الذين كانت تربطهم بابن الصباح معاهدة
 صلح ، فأراد السلجوقيون أن ينتقموا لأنفسهم من الاسماعيلية
 بعد موت زعيمهم ومؤسس دولتهم في فارس ، وخيل إلى
 السلجوقيين أنه من السهل عليهم أن يبيدوا الاسماعيلية وأن يقضوا
 عليها قضاء تاماً ، فبدأوا بحربهم بعد أن جمعوا حولهم الناقين
 على الاسماعيلية ، واستمرت الحرب ولكنها كانت سجالات بين
 الطائفتين المتحاربتين ، غير أن الاسماعيلية أكثروا من القتل والنهب

وكرت غاراتهم على القرى والبلدان القريبة من حصونهم وسلب كل ما كانوا يجدونه في طريقهم حتى ضج الناس منهم ، الأمر الذي أدى بالملك سنجر إلى أن يحاول محاربة الاسماعيلية في قلعة آلموت نفسها سنة ٥٢١ هـ ، فهاجمهم واستطاع أن يقتل منهم عدداً كبيراً قدر بنحو عشرة آلاف شخص ، ولكنه لم يستطع أن يستولى على القلعة . وانتقم الاسماعيلية لهذه المذبحة انتقاماً مرعباً حقاً ، إذ فتكوا بكل من استطاعوا اغتياله من أعدائهم كباراً وصغاراً ، وممرت السنون وهم يقتلون وينهبون ، حتى امتدت أيديهم بالخناجر إلى الخليفة العباسي في بغداد فقتلوه ، وفرضوا الضرائب على البلاد التي يجوار قلاعهم ، كما فرضوا الضرائب على قوافل التجارة بحجة حمايتها ، والويل لكل من يرفض لهم طلباً ، فكان مصيره القتل ونهب أمواله ، فأوقعوا الرعب في نفوس الناس الذين اضطروا إلى الخضوع لأوامرهم وتلبية طلباتهم .

في ظل هذه الدولة التي أسسها الحسن بن الصباح عاش أئمة الاسماعيلية من نسل نزار بن المستنصر الفاطمي ، هكذا قال الاسماعيلية الشرقية ، غير أن هؤلاء الأئمة كانوا في ستر تام ، فلم يعرف أحد عنهم شيئاً ، ولم يذكر المؤرخون أسماءهم ، بل لم يشر إليهم أحد . وكان الذين يحكمون طائفة الاسماعيلية من آلموت يقولون عن أنفسهم إنهم دعاة الإمام ، ونقرأ عن الحسن

الثاني بن محمد الذي تولى الأمر بالموت سنة ٥٥٨ هـ أنه يذيع بين الطائفة الاسماعيلية أنه تلقى رسالة من الإمام جاء فيها « إن الحسن ابن محمد بن كيازر كإنما هو خليفتنا وداعيتنا وحجتنا ، فعلى جميع من هم على عقيدتنا أن يطيعوه في الأمور الأخروية والدينية وأن يأتروا بأوامره ، ويعتبروا كلماته من وحى الله وأن لا يخالفوا له أمراً ، بل يتقيدوا بها ويعملوا بها كما لو كانت من لدنا » .

وبعد أن قرئ هذا السجل على الناس بالمسجد ، خطبهم الحسن الثاني وأمرهم بطرح جميع التكليف الدينية ، والامتناع عن إقامة الفرائض الإسلامية ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كلكم راعٍ وكل راعٍ مسئول عن رعيته » فالإمام هو المسئول الأول عن أتباعه ، وهو الذي يتحمل بداهم الحساب يوم القيامة ، إن أطاعوه إطاعة تامة واعتقدوا إمامته على هذا النحو . وبذلك دخلت الدعوة الاسماعيلية الشرقية في دور جديد من أدوار عقائد هذه الطائفة وتقاليدها ، وهو دور عدم القيام بالفرائض الدينية من صلاة وصوم وحج . . . الخ ، وعدم التقيد بما كان عند الاسماعيلية في دور الظهور الأول أو في العصر الفاطمي من الاعتقاد بالظاهر والباطن أى العبادة العملية والعبادة العلمية . وقد قبل الاسماعيلية الشرقية هذه الآراء الجديدة لأن الإمام أمرهم بطاعة الحسن بن محمد بن كيازر ، ثم لأن النفس البشرية ترحب دائماً بما يحورها من قيود التقاليد والأحكام دينية كانت

أم غير دينية ، وثالثاً لأن الإمام سيتحمل الحساب عنهم يوم
القيامة . لهذا رجب الاسماعيلية بهذه الآراء الجديدة التي أذاعها
الحسن بن محمد بن كيا بزرگ سنة ٥٥٨ هـ . ثم نرى الحسن هذا
يتخذ خطوة أخرى في ١٧ رمضان سنة ٥٥٩ هـ ، إذ أعلن
الحسن هذا نفسه بأنه هو الإمام من نسل زرار بن المستنصر بالله
الفاطمي ، وأصبح اسمه لا يذكر إلا مقروناً بقولهم : « على ذكره
السلام » وبذلك أصبح حكام آل موت من الحسن الثاني (على ذكره
السلام) والذين جاءوا بعده من سلسلة النسب الفاطمية ، فازداد
الناس حوله التفافاً ، وفرحاً بظهوره بعد الستر ، وطاعة له لأنه
المستول عنهم أمام الله . فطاعة الإمام الآن أوجب من أي
وقت مضى في تاريخهم . على أن الحسن الثالث جلال الدين
— حفيد الحسن الثاني — الذي تولى الأمر سنة ٦٠٧ هـ أمر
بإعادة القيام بالفرائض الدينية كما كانت قبل ظهور جده ، وأمر
ببناء المساجد وإقامة الأذان للصلاة وقرب إليه الفقهاء والقراء
وأغدق عليهم الهدايا والأموال ، بل خطا خطوات أوسع من
ذلك ، إذ راسل الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، وأرسل إلى
السلطان السلجوقي وخوارزم شاه وإلى غيرهما من الملوك والأمراء
يؤكد لهم صدق عودته إلى التعاليم الإسلامية والقيام بشعائر الدين
وفرائضه ، ففرحت بذلك البلاد الإسلامية ، وأخذ كل ملك يخلع
على الحسن الثالث الألقاب ، ومن هذه الألقاب « المسلم الجديد » ،

ويظهر أن فرح المسلمين بعودته إلى التعاليم الإسلامية كان له أثره في نفس الحسن الثالث ، إذ غالى في إظهار رجوعه إلى الحق قائمتهز فرصة زيارة بعض وفود المسلمين له فأحرق أمامهم كتب الحسن ابن الصباح وكتب الاسماعيليه السرية ، وطعن في الحسن بن الصباح وكل من تولى أمر الاسماعيليه بعده ورماهم جميعا بالكفر والإلحاد ، ثم بعث أمه وزوجه لأداء فريضة الحج ، وأمر ببناء التكايا على طول الطريق إلى مكة المكرمة برسم الفقراء من المسلمين وخاصة للمتصوفة ، وعقد معاهدات الصلح والتحالف مع أعدائه من الملوك ، وبذلك كله اقتنع المسلمون بأنه أعاد الاسماعيليه إلى الوحدة الإسلامية الكبرى التي مزقتها الفرق المختلفة . ولنا أن نتساءل عن السبب الذي من أجله خالف الحسن الثالث عن رأى أبيه وجده ، هناك رأى يقول إن الحسن الثالث جلال الدين كثيرا ما كان يعلن استنكاره الشديد لسياسية أبيه وجده في حياة أبيه ، وكثيرا ما قامت المناقشات العنيفة بينه وبين أبيه بسبب العقيدة الدينية ، وأن هذه المناقشات خرجت أحيانا إلى طور السباب وكيل التهم ، حتى إن أباهم بأن يخلمه عن ولاية العهد في أخريات أيامه لولا أنه مات قبل أن يتمكن من ذلك ، فلما تولى الحسن الثالث الأمر أعاد الفرائض والشرائع إلى ما كانت عليه . وربما أستطيع أن أضيف إلى هذا الرأى أن الطائفة الاسماعيليه خسرت في العالم الإسلامى أجمع الهيبة والاحترام ،

فالحكام الذين تولوا أمر الاسماعيليه قبل الحسن الثاني ، سواء أ كانوا في دور الظهور الأول بالغرب أو في العصر الفاطمي بالقاهرة أو عصر آلوت ، كانوا يذيعون أنهم يدافعون عن الدين وعن فرائضه ، وكان أعداؤهم يرمونهم بالزيغ عن الدين ، فينبري الدعاة لدحض هذه الأقاويل ويثبتون للناس أن الأئمة الاسماعيليه إنما يعملون على تثبيت قواعد الدين التي أتى بها جدهم محمد عليه الصلاة والسلام ، أسوة بما فعله أبوهم علي بن أبي طالب ، فلما أظهر الحسن الثاني آراءه الجديدة بطرح الفرائض وعدم إقامة الشعائر فطن المسلمون إلى أن الاسماعيليه أذعياء في دفاعهم عن الدين وأنهم يستحقون لقب الباطنية ، لأنهم يظهرون غير ما يظنون ، فأراد جلال الدين أن يستعيد ثقة المسلمين في الاسماعيليه ، ويتقرب بذلك إلى ملوك المسلمين ليعترفوا به ويخلموا عليه الألقاب التي تورع أسلافه عنها ، ونستطيع أن نقارن حالة الاسماعيليه الشرقيه هذه بجماعة اليسوعيين الذين أحسّوا بفضب البابا ورغبته في حل منظماتهم ، وشعروا بسخط الحكومات المختلفه على سياستهم ، فاضطروا إلى العوده إلى طاعة البابا والتنكر لآرائهم التي ساروا عليها واتبعوا التقاليد الكاثوليكيه فعاد إليهم نفوذهم وهيبتهم . كذلك كان الأمر مع الاسماعيليه الشرقيه في عهد جلال الدين الحسن الثالث . ولكن الحسن الثالث لم يعمر طويلا إذ طعنه أحد الفدائيين الذين رأوه يخرج على تعاليم أبيه

وجده ، وأراد التخلص من آرائه الدينية ، ومن الشرائع التي طلب من أتباعه أن يعودوا إليها بعد أن تحرروا منها ، ومن مهادة الخصوم ، ومصانعة الخليفة العباسي ببغداد ، وهي كلها أمور أغضبت بعض أتباعه فتآصروا على قتله ، وبذلك رجع الاسماعيلية الشرقية يعد موته إلى آراء أبيه وجده ، وسار أصحاب آلموت على هذه السياسة في الناحية الدينية ، وعلى إيفاد الفدائيين إلى الأمراء والملوك لاغتيالهم ؛ حتى ظهرت جيوش المغول في آسيا واجتاحت القلاع والحصون التي في طريقها ، وكانت قلاع الاسماعيلية مما اجتاحته جيوش المغول . وفي سنة ٦٥١ هـ (١٢٥٤ م) خرج هولوكو بجيشه لغزو حصون الاسماعيلية ، وأرسل إلى ملوك المسلمين المجاورين لقلاع الاسماعيلية سجلا جاء فيه :

« نحن إنما حضرنا بأمر الخان لندكَّ حصون الملاحدة ، فإذا رأيتم أن تحضروا بأنفسكم إلينا ، وتلحقوا عساكركم بعساكرنا ، فإننا سنحفظ عليكم بلادكم ، وسنعوض عليكم معاوتكم هذه بالإنعامات الملوكية ، أما إذا ترددتم وتمنتم فإننا سأقتض عليكم فور انتهائي من أمر هذه الطائفة الضالة الاسماعيلية » . ومن الطبيعي أن يستجيب ملوك المسلمين المجاورين للاسماعيلية لنداء هولوكو إما خوفاً من بطشه وتهديداته وإثما رغبة منهم للتخلص من الفدائيين الاسماعيلية ، وهكذا سارت

جموع المغول ومعهم جيوش من المسلمين لمحاربة الاسماعيلية في
 حصونهم ، وسرعان ما أذعن ركن الدين خورشاه إمام الاسماعيلية
 للقائد هولوكو الذي دخل قلعة آلموت سنة ٦٥٤ هـ ، كما استولى
 على جميع قلاع وحصون الاسماعيلية ، وكانت تبلغ الأربعين
 حصناً ، دكت كلها إلى الأرض بعد أن هرب منها سكانها تاركين
 خزائهم وكنوزهم نهباً لجيش هولوكو المغولي ، ثم أخذ المغول
 بعد ذلك في تتبع الاسماعيلية فكانوا يقتلون كل اسماعيلي يقابلونه ،
 حتى لم ينج من الاسماعيلية سوى الأطفال ، وشردوا في البلاد
 مصطنعين التقية والستر خيفة الوقوع في أيدي المغول وحفظاً على
 حياتهم ، وقتل ركن الدين خورشاه آخر الأئمة الاسماعيلية النزازية
 في آلموت ، ولكنه قبل مقتله استطاع أن يخفي ابنه شمس الدين
 محمد فهرب هذا متنكراً ، إلى جهة ما بجنوب القوقاز حيث عاش
 هو وخلفاؤه مستترين متنكرين على هيئة تجار وأصحاب أراضي
 زراعية ، ثم انتقلوا من مكانهم إلى قرية كبيرة اسمها « انجودا »
 وهي تقع على الطريق القديم الذي يصل بين إصفهان وهمدان ،
 أي على بعد حوالي عشرين ميلاً من مدينة أراك الحالية ، وهناك في
 هذه القرية قضى شمس الدين محمد بن ركن الدين خورشاه بقية
 حياته إلى أن مات في النصف الأول من القرن الثامن للهجرة .
 وقد واجهت الطائفة الاسماعيلية الشرقية أزمة عنيفة بسبب
 النزاع على تولى الإمامة بعد شمس الدين محمد ، ففريق من الاسماعيلية

المشردين نادوا بإمامة محمد شاه ، واعترفوا به وإمامة الأئمة من نسله حتى انقطعت سلسلة الأئمة من نسله في منتصف القرن العاشر الهجرى .

وآخر إمام من أئمة هذا الفرع هو طاهر شاه الثالث المعروف بالدكنى الذى هاجر إلى الهند وتوفى هناك حوالى سنة ٩٥٠ هـ ، وعموته انقطع هذا الفرع بالرغم من وجود أتباع له إلى الآن ، وخاصة فى مصياف والقدموس بسورية ، وهم أى اسماعيلية مصياف والقدموس الآن فى حيرة من أمر الإمام الذى يتبعونه من نسل طاهر شاه دكنى هذا ، وأرى من الحق على أن أذكر أن اسماعيلية مصياف والقدموس لا يفترقون عن إخوانهم المسلمين فى جميع بلاد العالم فى شىء ، فهم يتسابقون فى إقامة فرائض الدين وشعاره أسوة بإخوانهم المسلمين ، ويحفظون القرآن الكريم ويعملون بهديه ، ويقتدون بسنة الرسول الكريم ويحفظون أحاديثه ، بل هم متعصبون للإسلام والعروبة . ولا خلاف بينهم وبين أهل السنة إلا أنهم يسمون أنفسهم الاسماعيلية .

أما الفرع الثانى من الطائفة الاسماعيلية الشرقية فقد اعتقدوا إمامة قاسم شاه ، وهؤلاء هم العدد الأكبر من هذه الطائفة . وهنا يجب أن أشير إلى أن الاسماعيلية الشرقية اضطرت إلى الهجرة من حصونها وقلاعها ، اضطراراً أمام ما حل بهم من أهوال ومذابح على نحو ما ذكرناه ، وكانت هذه الهجرة إلى إقليم

بادخشان (أعلى نهر جيحون) وإلى الهند على وجه الخصوص .
والهند كانت دائماً مأوى اللاجئين من الفرس ، لجأ إليها عدد من
الزردشتيين عندما قامت جيوش العرب باجتياح بلاد فارس ،
وكون الزردشتيون في الهند جالية لا تزال إلى يومنا هذا يحافظون
على تقاليدهم وشعائرهم الدينية ، وهم يعرفون الآن بالبارسين .
وهذا ما حدث أيضاً للاسماعيلية الشرقية عندما وقعت أملاكهم
فريسة في أيدي المغول وخافوا على أنفسهم القتل فاتجهوا إلى
الهجرة إلى الهند ، وفي الهند كان يوجد عدد من الاسماعيلية ،
اعتنقوا المذهب على أيدي دعاة اليمن ، واستطاعوا أن يؤسسوا
لأنفسهم جاليات اسماعيلية اتخذت مدينة مُلتان مركزاً لها ،
وكان للاسماعيلية الهند شيء من السيطرة على إقليم السند كله ،
وظلوا كذلك مدة طويلة دون أن يكونوا لأنفسهم دولة أو إمارة
هناك ، بل اكتفوا بما لهم من نفوذ وتأثير على ملوك الإقليم
وأمرائه وما لهم من سيطرة اقتصادية في البلاد ، حتى قام محمد
الغوري بجيش قوامه من الأفغانيين والآتراك بغزو بلاد الهند ،
فانتصر على أمراء راجبوت في موقعة ثانیسار سنة ٥٧١ هـ
وامتدت فتوحاته إلى أن احتل أجمير ودلهي وبنارس ، فخضع له
وادی نهر الكنج كله حتى إقليم البنغال ، وأسس في الهند حكماً
إسلامياً ونشر الدين الإسلامي في الهند ، كانت هذه الفتوحات
الغورية في الهند ذات أثر كبير على الاسماعيلية هناك ، إذ قام

الغورى بالبحث عن الاسماعيليه وقتلهم ، فاضطر الاسماعيليه إلى
 النقيه وشردوا داخل بلاد الهند الواسعة ، وتنكروا في زي
 الهندوكيين ، وبعد هذه المذبحة بمائة عام تقريباً ، وفدت على الهند
 موجات الاسماعيليه المهاجرين الذين فروا من المغول ، وبطبيعة
 الحال اتصل زعماء المهاجرين بالاسماعيليه في الهند الذين كانوا
 متأثرين بالعقائد والتقاليد الهندوكية ، فكان من نتيجة هذا
 الاتصال أن كوّن الاسماعيليه الشرقيه في الهند عقائد جديده هي
 مزيج من عقائد الاسماعيليه والعقائد الهندوكيه والتصوف الفارسى
 والهندي . وهنا يجب أن أشير إلى حقيقة هامه . وهي أن عدداً
 كبيراً من شيوخ التصوفه في فارس والهند الذين يطلق عليهم
 لقب (پير) كانوا مستقلين استقلالاً ذاتياً — إن صح هذا
 التعبير — لكل منهم منهجه وطريقته الصوفيه ، ومع ذلك كله
 كانوا متأثرين جميعاً تأثراً تاماً بعقائد الاسماعيليه ، بل منهم من كان
 تحت سلطان الأئمة الاسماعيليه ، وحدث أن انشق فريق من هؤلاء
 التصوفه الاسماعيليه بزعامه إمام شاه في بداية القرن الماشر
 الهجرى ، وكونوا طائفة جديده لا تزال تعرف إلى اليوم باسم
 طائفة الساتبانت أى طائفة طريق الحور ، ولا يزال أتباع هذه
 الطائفة يعيشون إلى اليوم في ولاية جوجرات وفي خندش بالهند ،
 وهم يذهبون إلى أن شمس التبريزى وجلال الدين الرومى الصوفيين
 المعروفين كانا من زعماء مذهبهم ولذلك يرددون أشعارهما بعد أن

ترجمت إلى اللغة الجوجزائية . أما بقية الاسماعيلية الشرقية في الهند فاستمروا على ولائهم لإمامة الأئمة من نسل قاسم شاه ، وتفرقوا في أنحاء الهند ، ولم يبق في ملتان والمدن التي تجاورها سوى عدد قليل احترفوا صياغة المذهب ومهروا في هذه الصناعة حتى عرفوا « بالسنار » أي الصاغة .

أما في أقاليم الهند الأخرى فقد اشتغل الاسماعيلية الشرقية بالتجارة مثل الاسماعلية البهرة ، ولذلك تفرقوا في المراكز التجارية الهامة في آسيا ومنها إلى إفريقية الشرقية والجنوبية ، ولا سيما في عهد إمامهم محمد الحسيني أغا خان المتوفى في أغسطس سنة ١٩٥٧ م الذي سنتحدث عنه في فصل خاص .

حكام وأئمة الاسماعيلية الشرقية في آل موت

- ١ - الحسن بن الصباح : توفى سنة ١١٢٤ م .
- ٢ - كيايزرك أميد : توفى سنة ١١٣٨ م .
- ٣ - محمد بن كيايزرك أميد : توفى سنة ١١٦٢ م .
- ٤ - الحسن الثاني بن محمد : توفى سنة ١١٦٦ م .
- ٥ - محمد الثاني بن الحسن الثاني : توفى سنة ١٢١٠ م .
- ٦ - الحسن الثالث بن محمد الثاني : توفى سنة ١٢٢١ م .
- ٧ - محمد الثالث بن الحسن الثالث : توفى سنة ١٢٥٥ م .
- ٨ - ركن الدين خورشاه : توفى سنة ١٢٥٥ م .

الفصل الخامس

الاسماعيلية الزارية في الشام

في حديثنا عن دور الستر ذكرنا أن الأئمة الاسماعيلية اتخذوا مدينة سلمية بجوار حصن ببلاد الشام مركزاً لدعوتهم السرية ومقراً لمقامهم ، ومنها كانوا يبعثون الدعوة إلى مختلف البلاد . ومعنى هذا أن بلاد الشام عرفت الدعوة الاسماعيلية في وقت مبكر إذا قيست بالبلدان الأخرى ، وفي الشام كانت حركات بعض القرامطة الذين كانوا من الاسماعيلية ثم خرجوا عليهم وحاربوهم ، فاضطر المهدي بالله صاحب دور الظهور إلى الهروب من بلاد الشام ، ولما ملك الاسماعيلية (الفاطميون) مصر أرسلوا جيوشهم إلى بلاد الشام واستطاعوا الاستيلاء على جزء كبير منها ونشروا هناك الدعوة الاسماعيلية ، فأصبح للأئمة الاسماعيلية الفاطميين أتباع ومستجيبون في الشام ، وقد ذكرنا أن دعاة نأليه الحاكم بأمر الله استطاعوا تحويل بعض القبائل التي كانت تدين بعقيدة الاسماعيلية إلى عقيدة نأليه وهم المروفون بالدرروز . وعلى إثر فرار الحسن بن الصباح من مصر إلى بلاد فارس من بلاد الشام وأقام مدة في مدينة حلب حيث دعا إلى المذهب الاسماعيلي ، وأخذت الآراء

والمقائد الاسماعيلية تقوى وتنتشر في بلاد الشام كلما واتت
 للاسماعيلية فرصة لذلك ، أو كانت تضعف أمام قوة الأمراء
 والحكام وخاصة أيام سلاجقة العراق والشام ، ثم ظهرت حركة
 الصليبيين ونجحت هذه الحركة في تأسيس إمارات صليبية في بلاد
 الشام . ويرجع العامل الأول في نجاح الصليبيين إلى الخلاف الذي
 كان بين أمراء المسلمين وعدم وقفهم جبهة واحدة أمام الخطر
 الصليبي .

كانت بلاد الشام منقسمة إلى إمارات صغيرة متنازعة فيما بينها
 متشاحنة متباغضة بسبب مطامع الأمراء وأحقادهم ، الأمر الذي
 سهل على الصليبيين المستعمرين أن ينالوا النصر تلو النصر في
 سهولة ويسر ، حتى أشيع أن الصليبيين لا يقهرون ، تخافهم
 الأمراء ، بل استعان بهم بعض الأمراء المسلمين ضد أعدائهم .
 كان الأمير رضوان أميراً على حلب ، وكان أخوه دقاق أميراً
 على دمشق وصهره (زوج ابنته) جناح الدولة أميراً على حمص ،
 وكانوا جميعاً ولاية من قبل السلجوقيين ، وحدث أن وفد على حلب
 شخص يعرف بالحكيم النجم أسعد ، استطاع في شيء من الدهاء
 أن يتصل بالأمير رضوان وأن يستجوذ لبتّه ويسطر عليه ، بحيث
 أصبح رضوان العوبة بين يديه ، ووسوس الحكيم النجم أسعد إلى
 الأمير رضوان بأن أخاه وصهره يأتمران به ، وأنهما يجمعان الجيوش
 لانتزاع حلب منه ، وزين له أن يستعد للملاقاة مجموعهما ووعده

الحكيم بمساعدة الاسماعيليه ، وفعلنا أرسل دعاة الإسماعيلية بالشام إلى الأمير رضوان يعدونه بكل مساعدة ممكنة ولقبوه بالسلطان ، ففرّه ذلك منهم ، وربما ظن أنهم سيولونه الإمارة عليهم ، ولذلك بادر رضوان عملاً بنصيحة الحكيم المنجم أسعد إلى بناء مسجد خاص بالاسماعيليه في حلب بعد أن كانوا يعيشون فيها في ذعر وخوف من بطش السلاجقة ، وكثيراً ما أظهروا التقيه سترًا على أنفسهم ، فلما رأى الإسماعيلية أن الأمير رضوان يحميمهم أظهروا أنفسهم وخرجوا من سترهم وأصبح لهم عليه دالة خاصة ، ولا سيما بعد أن اتضح أن عدداً كبيراً منهم كانوا يعملون في بلاط الأمير دون أن تُعرف إسماعيليتهم . ولما قوى نفوذ الاسماعيليه في حلب على هذا النحو وفد إليها من فارس جماعات عديدة من الاسماعيليه الذين فروا من السلجوقيين ، حتى زاد عدد الاسماعيليه في حلب وازدادوا قوة ، حتى إن المؤرخ ابن الفرات قال : « وكثروا وصار لهم في حلب دار دعوة وعظم شأنهم ، وصار كل من يجنى جناية منهم منعوه وحرسوه وكاتبوا الملوك في أمره حتى يخلصوه ، فكثرت بذلك أتباعهم واشتهروا أمرهم واشتدت شوكتهم ، وصار الرجل منهم يلقى الرجل من غيرهم فينزِع عنه ثيابه ولا يقدر على الامتناع منه ولا يجد ناصرًا ، ويلقى أحدهم المرأة والصبي في الطريق فيقبض عليه ويذهب به أنى شاء ولا يقدر أحد على استخلاصه » . ومهما يكن من مبالغة المؤرخ

ابن الفرات في وصف ما كان يأتيه الاسماعيليه في حلب فيكفي أن
نعرف أنهم كثروا في حلب ، كما انضم إليهم خلق من جبل
السماق ومعرة النعمان والبقاع المجاورة ، ومع هذه الجموع الاسماعيليه
التي أظهرت استعدادها لمساعدة رضوان ضد أخيه دقاق وصهره
جناح الدولة فإن جيش رضوان منى بالهزيمة وهرب رضوان كما
هرب الحكيم النجم أسعد ، فانتقم الاسماعيليه لهذه الهزيمة بأن
اغتالوا جناح الدولة بالمسجد الجامع سنة ٤٩٦ هـ ، فكان أول ضحية
للقدائين الاسماعيليه في بلاد الشام ، وعاد رضوان إلى حلب والناس
في سخط عليه ، حتى إن قاضي المدينة أغلظ له القول لحمايته
للالسماعيليه واعتماده عليهم ، فكان جزاء القاضي أن اغتاله
الاسماعيليه دون أن يستطيع أحد أن يمسك بالقاتل .

ثم وفد على بلاط رضوان بحلب أبو طاهر الفارس سفيرا
من قبل شيخ الجبل بآلموت ، فتجمع حوله إسماعيلية المدينة ،
ويظهر أنه كان مكلفا للقيام بعمل ما ، إذ ظل هذا الداعي يترقب
الفرصة الملائمة ليقوم بأداء مهمته في الشام ، ولا سيما في هذا الوقت
الذي كان فيه الصليبيون يهددون الإدارات الإسلامية ،
ويخضعون لهم البلد تلو الآخر ويفرضون على الأمراء المسلمين
الأناتوات ، أخذ أبو طاهر الفارس يراقب الأحداث عن كثب
إلى أن انتهاز فرصة انتزع فيها حصن قاميه من أيدي الصليبيين
سنة ٥٠٠ هـ . وجعل عليه الداعي أبا الفتح الذي كان يتولى أيضا

حصن سمرين بجوار حلب ، ولكن في سنة ٥٠٤ هـ استطاع
 الصليبيون أن يستعيدوا حصن فاميه وقتلوا واليها أبا الفتح الداعي .
 وبعض رجاله ، وحاف الداعي أبو طاهر الفارسي فهرب من حلب
 إلى آلموت استعداداً لتدبير مخاطر أخرى يقوم بها الاسماعيليه
 في الشام . سمع الأمير رضوان بهزيمة الاسماعيليه أمام الصليبيين ،
 وكان يدرك مدى سخط الناس عليه لمآلاتهم ومشاركتهم في القتل
 والاعتقال ، فتشجع بعد هزيمتهم وأراد أن يظهر براءته منهم ،
 فعمد إلى قتل عدد كبير منهم ، وطرده من حلب عدد آخر ،
 ولكنه ظل يستخدمهم في أغراضه وبستعين بهم في أموره على
 نحو ما حدثنا به المؤرخ ابن الفرات ، ثم بلغ رضوان أن
 الاسماعيليه يريدون اغتياله وانتزاع قلعة حلب من يديه ، فأدرك
 خطرهم وبدأ في اضطهادهم ولكنه توفي سنة ٥٠٧ هـ . فكان
 موته ابتداء مذابح عديدة قاسية ذهبت فيها أرواح عدد كبير من
 الاسماعيليه ، منهم أبو الفتح بن أبي طاهر الفارسي الذي قتله
 الجماهير ومثلوا بجثته أشنع تمثيل وطاقوا برأسه في المدينة ، وهرب
 الداعي ابن دملج إلى الرقة حيث وافته منيته ، وفر الداعي ابراهيم
 إلى قلعة شيزر ، وأخذ أهالي حلب بالحنه ، فمن كان اسماعيليا قتل
 حتى اضطر عدد منهم إلى الخروج من البلد ، وكثرت الوشايات
 بينهم حتى لم يبق في حلب اسماعيلي واحد يظهر مذهبه . وقد اتقم
 الاسماعيليه من ابن بديع الذي كان ينوب في الحكم في حلب .

كان أكثر اسماعيلية حلب الذين هربوا في هذه المحنة يلتجئون إلى شيزر حيث هرب الداعي ابراهيم ، ويظهر أنهم بعد تجمعهم في شيزر أرادوا الاستيلاء على قلعتها غير أنهم فشلوا فطردوا من المدينة بعد أن قتل منهم عدد كبير ، وعاد بعضهم إلى حلب بزعامه الداعي أبي محمد الذي كانت تربطه بالأمير ايلغازي صاحب ماردین لون من ألوان الصداقة ، فأرسل الداعي إلى صديقه يطلب منه السماح للاسماعيلية بالنزول في قلعة الشريق ، فسمح لهم بذلك ، ثم استعاد الاسماعيلية قوتهم ، وأخذت فرق الفدائيين تقوم بما عهد إليها من قتل واغتيال على نطاق واسع ، ففي سنة ٥٢٠ هـ اغتيل قسيم الدولة آن سنقر صاحب الموصل وهو في المسجد الجامع ، وزادت قوة الاسماعيلية في الشام حينما وفد عليها الداعي بهرام الاستراباذي الفارسي واستطاع أن يتصل بالأمير طغتكين صاحب دمشق ، وأن يتفق مع هذا الأمير على أن يتنازل للاسماعيلية عن قلعة بانياس (جنوب غربي دمشق) وبذلك تحقق حلم الاسماعيلية في الشام بامتلاك قلعة منيعة يثبون منها إلى غيرها من القلاع والحصون ، ففي قلعة بانياس استطاع بهرام أن يجهر بدعوته الاسماعيلية النزارية ، وأن يأخذ العهد على المستجيبين الذين كثروا حوله ، وحاول أن يتوسع في امتلاك القرى والبلاد المجاورة له ، غير أن الدروز باغتوا الاسماعيلية سنة ٥٣٢ هـ للأخذ بثأر أحد الدروز قتله الاسماعيلية ، ففر عدد من الاسماعيلية أمام

الدروز وقتل الداعي بهرام بعد أن عهد إلى الداعي إسماعيل الفارسي ليتولى شئون الطائفة من بعده في قلعة بانياس ، وكان إسماعيل الفارسي داهية في سياسته ، ذا قدرة فائقة للتأثير على الناس ، فانقاد له عدد كبير منهم ، واستطاع بلباقته أن يتجنب إلى الأمام ورجال الحكم فاستجابوا لمطالبه ، وكان المرذغانى وزير دمشق أحد الذين خضعوا لسيطرة الداعي الإسماعيلي ، حتى إن هذا الداعي استطاع أن يولى أحد أتباعه ، وهو الداعي أبو الوفاء - وظيفة قاضى قضاة دمشق ، ولم تكن تولية أبي الوفاء على قضاة دمشق إلا حلقة من سلسلة تديرات خاصة للوصول إلى فرض سلطان الاسماعيلية في دمشق وى غيرها من البلاد ، ولو تم ذلك بمخالفة الصليبيين ، ضد السلجوقيين ، فيحدثنا المؤرخون أمثال ابن القلانسي وابن الفرات وابن الأثير وأبى الفداء ، أن أبا الوفاء هذا بعث سرا إلى بودان الثانى ملك بيت المقدس يفاوضه في تسليم دمشق إلى الصليبيين مقابل أن يستولى الاسماعيلية على مدينة صور ، وقبل ملك بيت المقدس ذلك على أن يكون تسليم دمشق فى يوم الجمعة إذ يكون الأمير بورى بن طفتكين صاحب دمشق وحاشيته يؤدون الصلاة ، فينتهز قاضى القضاة هذه الفرصة فيفتح أبواب دمشق للصليبيين بعد أن يسد جميع منافذ البلد . غير أن الأمير بورى فطن إلى هذه المؤامرة ، فأسرع إلى قتل وزيره المرذغانى ، وتتبع الاسماعيلية فى دمشق ، فذبح منهم حوالى ستمائة

شخص ، وجاء الصليبيون بجيش كثيف لأخذ المدينة ولكن
الله ردهم عنها ، فعادوا أذراجهم سنة ٥٢٤ هـ ، ومن الطريف أن
الصليبيين الذين لم يستطيعوا الاستيلاء على دمشق تنفيذاً لأوامرهم
على الاسماعيليه ، عرجوا في عودتهم على قلعة بانياس التي كانت
في أيدي الاسماعيليه واستولوا عليها ، ولم يتردها الاسماعيليه
ثانية إلا سنة ٥٢٧ هـ ، وبعد ذلك بقليل اشترى الاسماعيليه حصن
قدموس ، وبعد ثمان سنوات استولوا على حصن مصياف ، وبها
زالوا يشترى الحصون أو يستولون عليها حتى بلغ عدد حصونهم
الرئيسية في الشام في القرن السابع للهجرة ثمانية حصون هي القدموس
ومصياف وبانياس والكهف والحوابي والنيقة والقلية والرصافة ،
وبجانب هذه الحصون الرئيسية الثمانية امتلكوا قلاعاً وحصوناً
أقل أهمية من هذه الحصون الرئيسية ، مما يدل على أن الاسماعيليه
استطاعوا برغم ما أصابهم من اضطهاد وتقتيل وتشريد أن
يؤسسوا لهم إمارات في بلاد الشام ، وازدادت قوة الاسماعيليه
بالشام بظهور شخصية فذة وداعية داهية في سياسته وفي مواهبه
وحكمته وهو « راشد لدين سنان » الذي استطاع بمقدرته وكفايته
أن يجمع كل إسماعيلية الشام حوله ، وأن يجعل منهم قوة متحدة
لهم نفوذ وسلطان مثل ما فعله الحسن بن الصباح في فارس ، بل
جعل لنفسه مذهباً جديداً دعا إليه غير ما كان عليه إسماعيلية الشام
من قبل ، فقد كان الاسماعيليه في الشام يدينون بإمامة أصحاب

قلعة الموت في فارس ، فجاء سنان وكون مذهب « السنانية »
 واعترفوا بإمامته ، غير أنهم عادوا بعد موته إلى طاعة الأئمة
 بالموت ، وبالرغم من تحوّلهم هذا فإن اسماعيلية الشام إلى الآن
 يذكرون الإمام راشد الدين علي أنه أعظم شخصياتهم على
 الإطلاق .

راشد الدين سنان :

عرفه جمهور أهل الشام بلقب « شيخ الجبل » إمعاناً في
 احترامه ورهبة منه في الوقت نفسه ، هو أبو الحسن سنان بن
 سليمان بن محمد ، ولد في قرية صغيرة من قرى البصرة ، ويقال إن
 سكان هذه القرية كانوا على مذهب النصيرية الذين يؤلّون على بن
 أبي طالب ، ولكن أسرة سنان لم تكن على هذه العقيدة ، بل
 كانت على مذهب الشيعة الاثني عشرية ، ولما شب تحول هو إلى
 مذهب الاسماعيلية على يد داعي دعاة العراق ، الذي لمس فيه مخائل
 النجابة والذكاء فحب إليه الرحيل إلى الموت ليتلقى هناك علوم
 الدعوة الاسماعيلية ، وكان صاحب الموت إذ ذاك هو محمد بن
 كيازرك أمير الذي أحسن استقبال سنان وجعله مع ولديه في
 طلب العلم ، بل اتخذه ربيباً له بعد ذلك بقليل . فتوطدت صلة
 سنان بولي العهد الحسن بن محمد ، فلما تولى الحسن (على ذكره
 السلام) أمور الطائفة بالموت أمر سناناً بالرحيل إلى الشام

ليشرف بنفسه على شئون الطائفة ، وليث الآراء الجديدة التي نادى بها الحسن وطلب من الاسماعيلية اتباعها ، ويخيل إلى أن الحسن (على ذكره السلام) كان يخشى ثورة اسماعيلية الشام ضد هذه الآراء والتعاليم الجديدة ، فأوفد إليهم الرجل الذي يركن إليه أكثر من أى شخص آخر لما لسه من خصاله وذكائه .

وقد سنان إلى الشام سنة ٥٥٨ هـ في زى الفقراء الصوفية حتى لا يعرفه أحد ، وكان وهو في طريقه إلى الشام يتجنب المرور بالدن الكبرى أو السير في الطرق السلوكة خوفاً من أن يكتشف شخصيته أحد ، فأعاد إلينا ذكر رحلة الداعى الشهير المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى عند ما هرب من العباسيين إلى مصر سنة ٤٣٧ هـ . ووصل سنان إلى حلب ولكنه لم يستطع أن يمكث بها ، فغادرها إلى مكان آخر يأمن فيه على نفسه ويستطيع فيه أن يؤدي مهمته ، فسار إلى قلعة الكهف واتخذها مقرآله ، وهناك واصل قراءة كتب العقائد والفلسفة التي شغف بها شغفاً عظيماً ، وفى نفس الوقت كان يدرس أحوال طائفته وأحوال غيرهم من المسلمين فى الشام وما كان من أمر جموع الصليبيين . ولا سيما فى هذه السنوات التي ظهر فيها نور الدين محمود زنكى صاحب حلب . وحاول سنان أن يوحد الإمارات المتشاحنة المتباغضة فى الشام ليواجه بجمعهم المتحدة قوى الصليبيين وقوى الاسماعيلية فى الوقت نفسه ، وفى شمال سورية حيث الجبال كانت تسكن بعض

الطوائف وخاصة طائفة النصيرية ، وهي كلها طوائف تكره
الاسماعيلية وتنتهز الفرصة للاشتباك معهم ، لذلك كله لم يشأ سنان
أن يقوم بأى عمل فى الشام قبل أن يدرس ويفكر ، و طال به
الدرس والتفكير إلى أن اتضح له الرأى الذى سيسير على هديه ،
راه ينتقل من قلعة الكهف إلى قلعة مصياى ويتخذها قاعدة له ،
وضاعف تحصيناتها وزودها بالسلاح والعتاد ، وأرسل إليه
نور الدين زنكى الجيوش تلو الجيوش لمحاربتة دون أن يحصل على
انتصار ما ، حتى عزم نور الدين على السير بنفسه على رأس جيش
لمحاربة سنان ، غير أنه توفى قبل أن يحقق ما رى إليه ، وترك
حلب وما والاها من البلدان إلى ولده الصالح إسماعيل الذى كان
صغير السن لا يعدو الثانية عشرة من عمره ، وجاء صلاح الدين
يوسف بن أيوب وأراد أن ينهج سياسة أستاذه نور الدين فى
الإمارات الشامية فسار إلى حلب ، فاضطر صاحب حلب إلى أن
يستعين بعدوه سنان الذى أسرع إلى تلبية ندائه وحاول الفدائيون
الاسماعيلية أن يقتالوا صلاح الدين ولكنه نجا من خناجرهم
مرتين ، ويقول ابن خلكان إن صلاح الدين أرسل إلى سنان
يتوعده ويهدده ، وأن سناناً أجاب على كتب صلاح الدين بما نقله
هنا بنصه لطرافته ، فقد بدأ سنان رسالته بالشعر لأنه كان ممن
يحبون قرص الشعر ؛ فهو يقول فى هذه الرسالة :

يا للرجال من أمر هال مفضله ما ضر قط على سمي توقعه
يا ذا الذي بقراع السيف هددنا لا قام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام إلى البازي يهدده واستيقظت لأسود البر أضبعه
أضحى يسد فم الأفعى بأصبغه يكفيه ما قد تلاقى منه أضبعه
إنا منحناك ثوباً للحياة فإن كنت الشكور وإلا سوف نخلعه

وقفنا على تفاصيله وجمله ، وعلما ما هددنا به من قوله وعمله ،
فيا لله العجب من ذبابة تطن في أذن فيل ، وبموضة تعض في
التمائيل ، ولقد قالها من قبلك قوم آخرون « فدمرناها عليهم
وما كان لهم من ناصرين » ، أوللحق تدحضون وللباطل
تنصرون ، « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » ، وأما
ما صدر من قولك في قطع رأسى ، وقلمك لقلاعى من الجبال
الرواسى ، فتلك أمانى كاذبة وخيالات غير صائبة ، فإن الجواهر
لا تزول بالأعراض كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض ،
كم بين قوى وضعيف وذئء وشريف ، وإن عدنا إلى الظواهر
والمحسوسات وعدلنا عن البواطن والمعقولات فلنا أسوة
برسول الله صلى الله وسلم في قوله « ما أودى نبي ما أوديت »
ولقد علمتم ما جرى على عترته وأهل بيته وشيعته ، والحال ما حال

والأمر ما زال ، والله الحمد في الأولى والآخرة ، إذ نحن مظلومون لا ظالمون ، ومنصوبون لا غاصبون ، وإذا جاء الحق زهق الباطل « إن الباطن كان زهوقاً » . ولقد علمت ظاهر حالنا وكيفية رجالنا وما يتمنونه من الفوت ويتقربون به إلى حياض الموت . « قل فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » ، وفي أمثال العامة السائرة (أو للبط تهددون بالشط) فهي للبلايا جلباباً وتدرع للرزايا أتواباً ، فلا تظهرن عليك منك ، ولأفنينهم فيك عنك ، فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه والجادع ما رن أنفه بكفه ، وما ذلك على الله بعزيز . فإذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد ، ومن حالك على اقتصاد ، وقرأ أول النحل وآخر صاد .

وعلى هذا النحو كثرت خطابات التهديد من الجانبين ، وأراد صلاح الدين أن يحارب سناناً فجرد جيشاً كثيفاً حاصر به قلعة مصيف ، ولكنه رجع عنها دون أن يفتحها ، وذلك لأن أحد عمومته طلب منه عدم التعرض للاسماعيلية حتى يتفرغ لحرب الصليبيين . ويقال إن صلاح الدين استيقظ ذات صباح وهو في معسكره فوجد خنجراً على فراشه ومعه بطاقة من سنان تدل على أن سناناً نفسه هو الذي زاره ووضع له الخنجر ، ولو شاء لقتل صلاح الدين دون أن يشعر به أحد . ويذهب أحد دعاة الاسماعيلية الذين عاصروا هذه الأحداث إلى أن صلاح الدين وسناناً صارا

صديقين حميمين ، وأنها اتفقا سوياً على العمل ضد الصليبيين ،
ولذلك أرسل شيخ الجبل راشد الدين سنان الفدائيين لقتل
الركيز كوزاد المونقراتي سنة ٥٨٨ هـ ، لأنه وجد صديقه
صلاح الدين في مسيس الحاجة إلى المساعدة ، وحفظ صلاح الدين
هذه اليد لصديقه فلما قبل عقد الصلح مع الصليبيين جعل
للإسماعيلية بنداً خاصاً في شروط الصلح وهو عدم التعرض لقتلهم
وأملأهم ، فكان اتفاق الإسماعيلية مع أهل السنة من أسباب
انتصارات العرب على الصليبيين في حروب صلاح الدين الأيوبي ،
ويقول الإسماعيلية في الشام إن سناناً لم يشأ أن يقتل صلاح الدين
لأنه كان يعلم من قران الكواكب (التنجيم) أنه يموت في نفس
السنة التي يموت فيها صلاح الدين ، ومن عجب أن يتحقق ذلك .
لعل أهم عمل قام به راشد الدين سنان هو أنه استطاع أن
يجمع كل إسماعيلية الشام تحت قيادته ، وأن يجعل منهم قوة
وقفت أمام كل من حاول الاعتداء عليهم ، ثم أنه نشر آراء
تعاليم الحسن (على ذكره السلام) وأضاف إليها آراء جديدة من
عنده ، هي آراء قريبة من آراء النصيرية ، ومن ذلك القول
بالتناسخ ، وهي عقيدة لم يقل بها الإسماعيلية من قبل بل نجد
في كتب دعاة الإسماعيلية القدماء تهكماً بالتناسخ وسخرية من
القائلين بهذه المقالة ، ولكن سناناً كان يعيش في صغره في بيئة
تقول بالتناسخ ، فرسخ في مخلفته ما كان يسمعه عن هذه الآراء

ولم يستطع أن ينزع هذه الآراء من مخيلته ، بل قال بها بعد أن أصبح رئيس طائفته وأذاعها بين أتباعه . ومن هنا جاء رأى الاسماعيليه بأن سنانا هو ابن أحد الأئمة الذين كانوا مستترين في آلموت . وذهب بعضهم إلى أنه هو الإمام نفسه ، وقد خص بالصفات التي خلعها الأئمة الاسماعيليه على أنفسهم منذ ظهور طائفة الاسماعيليه ، حتى إن المستشرق الفرنسي جويار توهم أنه نادى بالألوهية متأثراً في ذلك بالآراء النصيرية ، وللمستشرق جويار كما لغيره من الذين تعرضوا للكتابة عن الاسماعيليه عذرهم في عدم فهم معنى أو تأويل هذه الصفات ، لأن كتب التأويل الاسماعيلي لم تكن في متناول أيديهم على نحو ما هي الآن . ومهما يكن من شئ فإن اسماعيلية الشام اعترفوا بإمامة راشد الدين سنان وألصقوا به مناقب كثيرة ، ومنها أنه كان يعلم الغيب ، ويروون عنه في ذلك نوادر منها أنه أمر الفلاحين يوماً بالعودة مبكرين من الحقول إلى منازلهم لأن طفلاً صغيراً جرح جرحاً خطيراً دون أن يراه أحد ، وأن الطفل في حاجة إلى من يعتني به وإلامات ، فلما عاد الفلاحون إلى قرأهم وجدوا الطفل على نحو ما ذكره سنان .

ويروى الاسماعيليه أيضاً أن سنانا كان متوجهاً إلى قلعة مصيف ذات يوم فنزل بقرية المجدل التي خرج أهلها جميعاً لاستقباله والترحيب به ، وجاءه شيخ القرية بطعام مغطى بغطاء

ووضع الطعام بين يدي سنان ، ولكن سنانا أمر بأن يوضع
 هذا الطعام على حدة وأن لا يكشف أحد عن الطعام ، وأخيراً
 عند ما هم سنان ركوب دابته ، سأله شيخ القرية عن سبب عدم
 تناول شيء من طعامه الذي قدمه له وما في ذلك من امتهان له أمام
 أهل القرية ، فهمس سنان في أذنه بأن زوجة شيخ القرية هيأت
 الطعام على عجل واضطراب فنسيت أن تنزع أحشاء الدجاج منها ،
 ففضل سنان أن يتصرف هذا التصرف حتى لا يعرف أهل القرية
 شيئاً عن السبب فيزداد امتهانهم لشيخ القرية وزوجه . فمثل هذه
 القصص كان لها أثرها في عقلية الدهماء والسذج ولا سيما في تلك
 العصور التي عاش فيها سنان ، فذهبوا في سنان مذاهب شتى .
 أضف إلى ذلك كله أن سناناً كان يكثر من عقد مناظرات
 بينه وبين علماء أهل السنة بحضور عدد كبير من أتباعه ، وكان
 سنان يظهر على كل مناظره ويدحض حججهم وأقوالهم مما جعل
 أتباعه ينقادون إليه كل الانقياد ، ويتبعون تعاليمه وآراءه اتباعاً
 أعمى ، واعتقدوا أنه هو الإمام من نسل نزار فلم يتعلموا إلى
 آلموت أو إمامة من كان هناك ، ومات سنان بعد أن نظم جماعة
 الاسماعيلية في سورية ، وخلفه في رئاسة الطائفة جماعة من الدعاة
 لم يكن لهم مواهب سنان وقوة شخصيته . ولذلك تطلع اسماعيلية
 الشام مرة أخرى إلى أئمة آلموت ، وقد ذكرنا كيف غزا هولاء كوك
 قلاع الاسماعيلية في فارس سنة ٦٥٤ هـ ، واضطروا إمامهم

ركن الدين شاه إلى الاستسلام له فأرسل ركن الدين إلى داعيته
 بالشام أبي المعالي رضى الدين أن يسلم قلاع الشام إلى المغول ،
 فرفض الداعي أن يآتمر بأمر إمامه وأراد المقاومة ، ولكنه أمام
 انتصارات المغول في الشام اضطر أن يسلم بعض القلاع لهم سنة
 ٦٥٨ هـ ، غير أن جيوش مصر استطاعت أن تنزل بالمغول هزيمة
 منكرة في موقعة عين جالوت في رمضان سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩م)
 وتبدد شمل جيوشهم في الشام واسترد الجيش المصرى البلاد التي
 استولى عليها المغول ، فانهز الداعي أبو المعالي هذه الفرصة وجمع
 رجاله الذين أظهروا بلاءاً حسناً ضد المغول ، واسترد بهم قلاع
 الاسماعيليه ، ثم أخذ في تطهير طائفته من كل من ضعف عن
 القتال معه أو من خانه ، وبذلك قوى الاسماعيليه بعض الشيء ،
 غير أنهم لم يستطيعوا أن يقفوا أمام جيوش الظاهر بيبرس الذى
 هاجمهم سنة ٦٦٤ هـ ، وكانوا برئاسة الداعي «نجم الدين» واضطروا
 إلى أن يطلبوا من بيبرس أن يكونوا من بين رجاله ، ولعل
 ضياع حصون وقلاع الاسماعيليه في فارس وتشريدهم في البلاد
 واستتار إمامهم الاسماعيلى النزازى خوفاً على نفسه ، كل ذلك كان
 من أسباب تخاذل الاسماعيليه بالشام وضعفهم إلى هذه الدرجة
 التي قابلوا بها جيوش الظاهر بيبرس ، فقبلوا أن يدفعوا له الجزية
 وأصبح له الحق في أن يولى عليهم من يشاء من الدعاة ويعزل من
 يشاء ؛ ففي سنة ٦٦٩ هـ عزل بيبرس الداعي نجم الدين وولى بدلا

عنه الداعي صارم الدين بن سالمه على قلعة القدموس وقلعة الرضافة ،
 أما مصيف التي كانت القلعة الرئيسية للاسماعيلية وعاصمة بلادهم
 بالشام فقد احتفظ بيبرس بحكمها لنفسه ، وقد شاء صارم الدين
 ابن سالمه أن يتخلص من حكم بيبرس وأن ينقض المعاهدة التي
 كانت بين الاسماعيلية وبيبرس ، فهاجم مصيف وأمر بثورة باقى
 قلاع الاسماعيلية ، ولكن حركته هذه فشلت وهرب صارم الدين
 إلى قلعة العليقة التي سقطت فى أيدي نائب بيبرس سنة ٦٧٠ هـ ،
 وأتى القبض على صارم الدين الذى استسلم لبيبرس فحبسه ،
 وكذلك استسلمت قلعة المنيقة وقلعة القدموس إلى رجال بيبرس
 بينما ظلت قلعة الكهف صامدة قوية إلى أن استسلمت سنة ٦٧٢ هـ ،
 وبذلك سقطت كل القلاع الاسماعيلية وعادوا إلى الخضوع إلى
 بيبرس ، وبالرغم من هذه الثورة الاسماعيلية التي قاموا بها ضد
 بيبرس فإنه لم يشتم الاسماعيلية كما فعل هولاء باسماعيلية فارس
 بل أبقاهم تحت سلطانه وتجب إليهم حتى يستفيد من توجيه
 الفدائيين لضرب أعدائه ، وقد صرح بذلك ابن بطوطة الرحالة
 المغربى الذى زار قلاعهم سنة ٧٢٧ هـ ، فبعد أن تحدث عن هذه
 القلاع قال : « وهذه الحصون لطائفة يقال لها الاسماعيلية ويقال لهم
 الفداوية ، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك
 الناصر بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه ، ولهم المرتبات ، وإذنا
 أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدوله أعطاه ديبته ،

فإن سلم بعد تأدية ما يراد منه فهي له وإن أصيب فهي لولده ،
ولعل الفدائي الذي كان يعتمد عليه بيبرس هو المدعو « شيحة »
المدفون بدمياط والذي يقال فيه المثل العامى « مثل الأعيب شيحة »
حتى إن شيحة هذا ذكر في القصة الشعبية التي وضعها المصريون
عن الظاهر بيبرس ، وكنا نود أن توافينا المراجع بشيء عن
شيحة هذا ، ولكنها بخلت علينا بذلك .

ومهما يكن من شيء فإن اسماعيلية الشام ظلوا على عقيدتهم
يجاهرون بها في قلاعهم وحصونهم ، منهم من يدعو للأئمة
الزاريين من نسل قاسم شاه ، ومنهم من يدعو إلى الأئمة الزاريين
من نسل إمام شاه ، غير أنهم ظلوا طائفة دينية ليست لهم دولة
بالرغم من الدور الخطير الذي قاموا به في الشام ، ولا يزالون إلى
الآن في سلعية والحوابى والقدموس ومصيف وبنباس والكهف .

الفصل السادس

أغا خان

بعد تشريد الاسماعيلية النزارية وتشتت شملهم وضياح قلاعهم في فارس ، وبعد أن هاجر عدد كبير منهم إلى بلاد الهند ، لم يعد أحد يسمع شيئاً عنهم أو عن نشاط سياسي لهم ، فلم يحاولوا أن يتجمعوا ليقوموا ببناء كيان سياسي خاص بهم مثل هذه المحاولات العديدة التي قاموا بها من قبل ، بل أستطيع أن أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن أفراد الطائفة في الهند لم يبالوا بشيء سوى المحافظة على حياتهم ، ولم يتصل أحدهم بالأئمة إلا هؤلاء الذين كانوا في حاشية الأئمة ، حقيقة ظاوا على عقيدتهم الاسماعيلية التي تأثرت بالمعائد الهندية ، وحاول بعض الدعاة أن ينشروا المذهب الاسماعيلي بين طوائف الهنود المختلفة وخاصة بين طبقة النبوذيين ونجحوا في ذلك نجاحاً ملحوظاً ، ولكنهم عاشوا في الهند مواطنين مسالين مثل غيرهم من سكان الهند ، واعتبرتهم الدولة إحدى الطوائف الدينية التي تكثر في تلك البلاد ، ولم تهتم بهم الدولة لأنه لا خطر منهم على سلامتها ، ولم يذكر المؤرخون شيئاً عنهم لأنهم لم يقوموا بأعمال يسجلها التاريخ ، ولم يظهر بينهم

شخصية فذة يقف عندها الباحثون ، كانوا يشتغلون بالتجارة وتديير المال ، شأنهم في ذلك شأن الأقليات في كل مجتمع ، ونجحوا في ذلك نجاحاً ملحوظاً ، أما ميادين الحياة الأخرى فتركوها لغيرهم . ظلوا يعيشون في سلم وأمان حتى القرن التاسع عشر الميلادي ، ففيه ظهر في إيران « حسن علي شاه » الذي جمع حوله عدداً من الاسماعيلية وغير الاسماعيلية هاجم بهم القرى والقوافل حتى ذاع صيته في جميع أنحاء إيران ، وأصبح له نفوذ واسع على أتباعه حتى خشيته الأسرة القاجارية الحاكمة في إيران ولا سيما بعد وفاة الشاه فتح على سنة ١٨٣٥ م ، وأشاد الإيرانيون بأعمال البطولة التي قام بها حسن علي شاه وأتباعه فتوافدوا عليه وانضموا لجماعته طمعا في المكاسب المادية التي سيحظون بها من مهاجمة القرى والمدن ، ولم يكن « حسن علي شاه » في ذلك الوقت يذيع شيئاً عن اسماعيليته أو ينشر بين أتباعه شيئاً عن عقيدته ، بل عمل أولاً على جمع الناس حوله وظهورهم بمظهر القوى الغني .

أما الناحية الدينية المذهبية فلم يشر إليها من قريب ولا من بعيد ، وفي هذه السنوات التي بدأ فيها الحسن علي شاه هذه المحاولات ، كان الإنجليز يعملون على بسط نفوذهم في بلاد فارس ، ومن عادة الإنجليز دائماً في كل بلد يطمعون في استعمارهم أن يبتثروا الدسائس في ربوعه ، ويوقعوا الفرقة بين صفوف الأمة

الواحدة ، ويستميلوا إليهم كل طامع في الجاه أو الثروة ، فكان من الطبيعي أن يتصل أعوان الإنجليز وصنائعهم في فارس بجماعة حسن على شاه ، وزينوا لهم القيام بثورة ضد الشاه ، ومنوهم أن يتولى حسن على شاه حكم فارس ، وتمت المؤامرة مع الإنجليز ، وقام حسن على شاه بالثورة ، ولكنها فشلت ، وقبض شاه إيران على حسن على شاه زعيم الثورة وزج به في السجن ، ولكن الإنجليز تدخلوا واستطاعوا أن يحصلوا على أمر بالإفراج عنه بشرط أن ينفى من إيران كلها ، وخرج حسن على شاه من سجنه وهو لا يدري أين يذهب وقد انفض من حوله أنصاره وأتباعه ، فزين له الإنجليز أن يرحل إلى أفغانستان ، فربما استفادوا منه هناك ، إذ كان الإنجليز في حرب مع الأفغانين ، وكانوا على خلاف شديد مع روسيا بسبب مناطق النفوذ في أفغانستان . رحل حسن على شاه إلى أفغانستان مزودا بتعاليم من الإنجليز يزداد بها نفوذهم ، وكان يقنع نفسه دائما بأنه يرد إلى الإنجليز جميلهم في إطلاق سراحه ، ولكن يظهر أنه لم يوفق في مهمته ، فقد فطن الأفغانيون إليه وإلى الدور الذي جاء يمثله ضدهم في خدمة أعدائهم الإنجليز ، فاضطر بعد فشله إلى الرحيل إلى الهند واتخذ مدينة بومباي مقراً له ، وأراد الإنجليز أن يستفيدوا منه مرة أخرى ، فإذا بهم يفترون به إماماً للطائفة الزارية الاسماعيلية ، وخلصوا عليه لقب « آغا خان »

ومنحوه السلطة المطلقة على أتباعه الإسماعيلية ، فتجمع حوله الإسماعيلية في الهند وفرحوا بظهور شأنهم بعد أن ظلوا مغمورين طوال هذه القرون ، وبظهور إمامهم الذي ظل في الستر والسكران مئات السنين ، فرأى « حسن على شاه » أو « أغا خان » نفسه بين جماعة يطيعونه طاعة تدين دون أن يكون لهم غرض مادي ، فقوى نفوذه بينهم وأصبح كأنه سلطانهم الفعلي ، فأخذ ينظم شؤونهم إلى أن توفي سنة ١٨٨١ م ، وبذلك وجدت الأسرة الأغاخانية وصارت لهم إمامة الإسماعيلية النزارية ، وانتسبوا إلى الإمام زرار بن المستنصر بالله الفاطمي ، ومؤسس هذه الأسرة هو حسن على شاه وهو أول إمام إسماعيلي لقب بأغا خان .

خلفه ابنه أغا على شاه في إمامة الطائفة الإسماعيلية النزارية ولقب بأغا خان الثاني . كان أبوه قد هبأه لتولي هذا المنصب الخطير ولتحمل إمامة طائفة دينية ، فعلمه تعليماً يتفق مع ما كان ينتظره من الإمامة ، فكان أغا خان الثاني على درجة عالية من الثقافة وكان يجيد عدة لغات إجادة تامة منها اللغة العربية ، وكان شاعراً من شعراء اللغة الفارسية والأوردية والجوجراتية ، وقد أفادته ثقافته وسعة اطلاعه في نشر التعليم بين طائفته ، بل أنشأ في الهند مدارس خاصة بالمسلمين عموماً على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم ، فاكسب بذلك تقدير وحب جميع المسلمين في الهند ، وبما ضاعف في علو مكانته بين الناس أنه استطاع أن يتزوج

زوجته الثالثة كريمة الشاه فتح على شاه إيران وهي المعروفة باسم « بيبي خان » ، وأنجب منها ابنه محمد الحسيني شاه المعروف بأغا خان الثالث ، وهو أغا خان المعروف في العالم بأسره المتوفى في أغسطس سنة ١٩٥٧ م ودفن في أسوان بمصر ، والذي في عهده بلغت طائفة الاسماعيلية مكانة في العالم كله ونظمت تنظيماً دقيقاً بفضل عبقرية أغا خان الراحل .

أغازه الثالث :

ولد أغا خان الثالث « محمد الحسيني شاه » في مدينة كراتشي — عاصمة الباكستان الآن — في ٢ نوفمبر سنة ١٨٧٧ م ، وتولى إمامة الطائفة الاسماعيلية عقب وفاة أبيه أغا خان الثاني في ١٧ أغسطس سنة ١٨٨٥ م ، وكان أغا خان الثالث في الثامنة من عمره حين تولى الإمامة ، وكانت الإمامة أولاً لأخيه شهاب الدين شاه ، توفي في حياة أبيه ، فانتقلت ولاية العهد إلى محمد الحسيني شاه الذي تولى الإمامة صغيراً فكفلته أمه وفي نفس الوقت أشرفت بنفسها على شئون الطائفة الإسماعيلية ، وكانت سيدة تمتاز برجاحة العقل وحسن التدبير والقدرة على تصريف الأمور على أحسن وجه ، فإليها يرجع الفضل في تشجيع المرأة الاسماعيلية على طلب العلم وعلى المساهمة في الحياة العملية جنباً إلى جنب مع الرجل ، وقد طلبت إلى عدد كبير من فتيات الأسر الاسماعيلية الكبيرة

في الهند أن يتطوعن للعمل في المستشفيات إبان الحرب العالمية الأولى ، وطلبت إلى المرأة الاسماعيلية الاشتراك في الأندية الرياضية والندوات الثقافية والجمعيات العلمية ، فألى السيدة « بيبي خان » يرجع الفضل الأول في نهضة المرأة الاسماعيلية وخروجها على التقاليد القديمة ، وقد لس الاسماعيلية منذ أول وهلة تولت فيها شئونهم اهتمامها الشديد بتنظيم المجتمع الاسماعيلي ، ودفع هذا المجتمع إلى الأمام بعيداً عن التقاليد البالية التي كان عليها الاسماعيلية من قبل أو التي يعيش عليها إخوانهم الاسماعيلية البهرة ، فاندفع الاسماعيلية الأغاخانية (النزارية) إلى الأخذ بأسباب التقدم الاجتماعي ، والأخذ عن الحضارة الغربية بمقدار ، ومن الطبيعي أن تهتم هذه السيدة بتربية ابنها « أغاخان » تربية من شأنها أن تجعله إماماً صالحاً لطائفته أولاً وللإنسانية ثانياً ، حتى كانت سنة ١٨٩٣ وقد بلغ ابنها السادسة عشرة من عمره ، فتركت إليه شئون الطائفة على أن يستشيرها كلما وجد ما يدعو لاستشارتها ، أو وجد نفسه أمام مشكل من المشاكل .

تركت إليه تدير أمور الطائفة التي هو إمامها ، ولكنها ظلت ترقبه وتتبع أعماله وتوجهه إلى ما فيه خير هذه الطائفة ، وبفضل توجيه هذه السيدة الكريمة استطاعت الطائفة الاسماعيلية أن تبلغ في عهد أغاخان الراحل درجة من الثراء والثقافة والتقدم الاجتماعي ما جعلت صحف العالم تتحدث عنه . استطاع أغاخان

بما قام به من أعمال أن يكتسب احترام المسلمين وغير المسلمين ، وبالرغم من أنه استمر يدين بآراء وعقائد الحسن (على ذكره السلام) وجعل طائفته يدينون بنفس هذه العقائد فإنه كان يجب دائماً أن يعرف أنه غيور على الإسلام ومصالح المسلمين ، وأنه من نسل فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، فما من مشكلة وقعت للمسلمين في عهده إلا وراه قد طرح عن نفسه صفته المذهبية وصبغته الطائفية وتطوع للدفاع عن المسلمين ، وتاريخه الطويل حافل بذلك ، ولنضرب لذلك بعض أمثلة فإننا لا نستطيع أن نسرّد كل ما قام به ، فالذين يعرفون تاريخ حياته يذكرون أنه إبان حركة الكمالين في تركيا وإلغاء الخلافة العثمانية ، كان أغا خان يدافع عن الخلافة ويهب العثمانيين الأموال ليظلوا رمزاً لقوة الإسلام والمسلمين ، مع العلم بأن تاريخ الأتراك يدل على أنهم كانوا ألد أعداء الشيعة عامة والاسماعيلية خاصة ، فالأتراك من جمهور أهل السنة على مذهب أبي حنيفة الذي يخالف مذهب الاسماعيلية تمام المخالفة ، والعداً بين العنصر التركي والاسماعيلية عداً قديماً تقليدياً ، ومع ذلك كان أغا خان يدافع عنهم لأن الخلافة الإسلامية رمز للمسلمين ، وكذلك نقول عن موقفه إبان الحرب بين الكمالين واليونان ، فقد فكرت إنجلترا أن تدخل الحرب في صف اليونان ضد تركيا ، فلما علم أغا خان بذلك أسرع إلى إنجلترا وقابل المسئولين فيها إذ ذاك واستطاع

بنفوذه وصداقته لهم أن يقنعهم بالمدول عن هذه الفكرة التي ستسبب إلى العالم الإسلامي بأسره ، ونذكر أيضاً أنه أثناء عقد الصلح بين تركيا واليونان كان الاتفاق على أن يكون إقليم تراقيا من نصيب اليونان ، فقام أغا خان على رأس وفد من مسلمي الهند يضم ممثلي المذاهب المختلفة ، وحاولوا إقناع لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت بالعمل على أن يكون إقليم تراقيا من البلاد التركية ، ولكن لويد جورج قال للوفد « إن اليونان تحتل هذا الإقليم بالفعل ولا سبيل لنا إلى إخراجهم منه » فابدى له أغا خان يقول « حسناً يا سيدي رئيس الوزراء إنني رجل كبير السن ولكني سأذهب إلى تراقيا وسيفي في يميني لطرده اليونان من هذا الإقليم الذي هو جزء من بلاد المسلمين » ومع هذا لم تفلح محاولة أغا خان ومن معه من مسلمي الهند في إعادة هذا الإقليم إلى تركيا . ومن مآثره أيضاً في خدمة المسلمين جميعاً أنه نادى بأن يأخذ المسلمون في الهند مكانهم الطبيعي في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، فأسس مع جماعة من المسلمين « الرابطة الإسلامية » سنة ١٩٠٧ وانتخب رئيساً لها سنة ١٩١٤ ، وكانت هذه الرابطة تجمع كلمة المسلمين جميعاً على اختلاف مذاهبهم ، وتعمل على النهوض بمستواهم في الهند ، وهذه الرابطة تطورت إلى حزب سياسي كان له خطره في الهند وترتب على أعماله وجود دولة باكستان الحالية ، وبالرغم من أن مؤسس دولة باكستان

« محمد علي جناح » كان من أتباع أغا خان في العقيدة ، فإنه كان يخالفه في الرأي السياسي لأن أغا خان لم يوافق على تقسيم الهند أو على إنشاء دولة الباكستان إذ كان يرى وجودها إضعاف شأن المسلمين في الهند والباكستان معاً . ولكنهم خالفوا رأى إمامهم وانساقوا وراء فكرة التقسيم لما فيها من غنم لهم ، ومع ذلك فإن أكثر رجال دولة الباكستان المسئولين من أتباع الاسماعيلية الأغاخانية .

ولعل أقوم عمل خالد له في سبيل المسلمين هو إنشاء أول جامعة علمية للمسلمين بالهند ، فقد رأى أن الهندوكيين يتبرعون بسخاء لإنشاء جامعات علمية لهم ، وليس للمسلمين جامعة تدرس العلوم الحديثة بجانب العلوم العربية والإسلامية ، ووجد أن المسلمين بالهند متخلفون في ميدان العلم لسبب انكبابهم على الكتب الدينية فقط من تفسير وحديث وتصوف وكلام وهي علوم لها قيمتها الكبرى لكل من يتخصص فيها ويؤهل نفسه ليكون رجلاً من رجال الدين ، ووجد بالهند معاهد خاصة إسلامية لتدريس هذه العلوم الإسلامية دون أن يتقدم العلماء أو الطلاب خطوات بهذه العلوم بل كان أكبر همهم هو المحافظة على تقاليد ليست من الدين الإسلامي في شيء كالتقيد بزى خاص أو التمسك باللعن إلى غير ذلك من المظاهر التي نشاهدها اليوم بين علماء المسلمين في الهند ، أما العلوم الحديثة فكان العلماء يقولون إنها

علوم أهل النار !! رأى أغا خان ذلك كله فدعا المسلمين في الهند على اختلاف مذاهبهم إلى إنشاء جامعة للمسلمين ، وعمل على نشر الوعي العلمى بين المسلمين ، وقام على رأس وفد من المسلمين طاف بهم كل بلاد الهند لجمع تبرعات من المسلمين لإنشاء هذه الجامعة ، واكتب المسلمون من غير الاسماعيلية لهذه الجامعة ودفع أغا خان من ماله الخاص مبلغاً يوازي كل ما جمع من المسلمين ، فكان نتيجة هذا الجهد « جامعة أليجار » التى تجمع فى منهجها العلوم الحديثة مع العلوم الإسلامية والعربية ، وانتخب أغا خان مديراً فخرياً لها عدة مرات ، ومديرها الفخرى الآن هو طاهر سيف الدين زعيم الاسماعيلية البهرة .

وأذكر أنى كنت أتحدث إليه بفندق مينهاوس بالقاهرة عقب إنشاء الجامعة العربية ، فأبدى لى أسفه من عدم تفكير المسئولين فى إنشاء جامعة إسلامية تضم جميع البلاد الإسلامية للنهوض بالمستوى الثقافى والاجتماعى والاقتصادى بين شعوب المسلمين ، وكان من رأيه ضرورة إنشاء الجامعة الإسلامية على شرط أن لا تتدخل هذه الجامعة فى الشؤون السياسية ، وكان على استعداد للقيام بالدعوة لهذه الجامعة وأن يدفع وحده عن طائفة الاسماعيلية مبلغاً يساوى جميع ما يدفعه المسلمون فى العالم إذا تحققت هذه الوحدة بين المسلمين ، وتركته رحمه الله وأنا أفكر فى أقواله عن الوحدة الإسلامية وجامعة الأم العربية وتوهمت يومئذ أن الرجل

ربما كان مدفوعاً من الإنجليز لتحطيم الجامعة العربية .
اهتم آغا خان بالتبشير بمذهبه الإسماعيلي ودعوة الناس إلى
اعتناق عقائده ، ووجه اهتماماً خاصاً للتبشير بين طائفة المنبوذين
بالهند فاستجاب لدعوته جمهور غفير منهم ، وأتباعه يذكرون
كيف أن شخصاً واحداً من كبار رجالهم وهو السيد محمد علي
ميكلاي المليونير المعروف في بومباي استطاع بمفرده أن يدخل نحو
عشرة آلاف منبوذ في الطائفة الإسماعيلية . وكان آغا خان يطلب
من المؤلفين أن يضعوا كتباً عن الإسلام باللغات الأوربية
ويكافئ المؤلفين بسخاء ، حتى إن أحد الأطباء المصريين عاش في
أوروبا أكثر من ثلاثين سنة يؤلف كتباً إسلامية ويتقاضى من
آغا خان أجوراً عالية كفلت له أن يعيش في أرق مستوى
في أوروبا .

تزوج آغا خان أربع مرات دون أن يجمع بين زوجتين ،
ففي سنة ١٨٩٧ م تزوج من أميرة إيرانية هي البيجوم (بمعنى
السيدة) شاه زادي ، ولكنها توفيت بعد سنوات قليلة ، وفي
سنة ١٩٠٨ م تزوج من فتاة إيطالية هي تريزا ماجليانو وأنجب
منها ابنه الأكبر « علي سليمان خان » ، وفي سنة ١٩٢٧ م أعجب
بفتاة فرنسية كانت تباع الحلوى والسجائر في كشك بجوار مقهى
الدوم بحي مونبارناس بباريس هي أندريه كارون وأنجب منها ابنه
« صدر الدين خان » ثم طلقها ، وتزوج سنة ١٩٤٤ م من عارضة

أزياء انتخبت ملكة جمال العالم هي «لابروس» وهي أرملته الملقبة بعد أن أسلمت وتمذهبت بالاسماعيلية بالبيجوم أم حبيبة . هؤلاء من زوجات أغا خان الراحل الشرعيات ، غير أن المقربين إليه يقولون إنه في شبابه كان زير نساء .

كان أغا خان بعيد النظر صادق الفراسة ، يعرف كيف يستغل المواقف في سبيل طائفته ، فقد رأى مثلاً أن بريطانيا قد احتلت المستعمرات الألمانية في شرق أفريقيا بعد الحرب العالمية الأولى ، وأن بهذه البلاد خيرات كثيرة ، فأمر الفقراء من أتباعه بالهجرة إليها ، وساعدهم بالمال والنفوذ لدى الإنجليز حتى استطاع الاسماعيلية هناك أن يستولوا على الحياة الاقتصادية ، وأن يصبحوا من أغنى أغنياء العالم ، ومن هنا نلمس سبب الشكوى في أن الاسماعيلية في كينيا يناهضون الحركة التحررية ، ويساعدون الإنجليزية في قمع ثورة «ماو ماو» ، وهي الثورة التي تهدف إلى إخراج الإنجليز من هذه المنطقة . وفي سنة ١٩٥٦ أبحر أغاخان إلى أتباعه في سورية فأمر بتأسيس شركة تجارية للتجارة مع اسماعيلية شرق أفريقيا ، ورصد مليوناً من الجنيهات لهذه الشركة ، وكان قبل ذلك بسنوات قد لاحظ ضعف حالة اسماعيلية الشام الاقتصادية وأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا له «الخمس» — وهو المال الذي يجب أن يدفعه كل اسماعيلي إلى الإمام — فأمر بإعفائهم من هذه الفريضة لمدة عشر سنوات على أن يدفعها القادرون ، ويجمع هذه الأموال

وتنفق في النهوض بمستوى الطائفة في الشام ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً ، وأمر بتشكيل مجلس أعلى للإشراف على ذلك .

ويتساءل الناس عن قصة وزن أغا خان بالذهب والماس والبلاطين ، فقد وزن مرتين بالذهب مرة في مدينة بومباي سنة ١٩٣٦ ، ووزن مرة أخرى في شرق أفريقيا سنة ١٩٣٧ ، وذلك بمناسبة مرور خمسين سنة على ولايته إمامة الطائفة الاسماعيليه ، ووزن ثلاث مرات بالماس سنة ١٩٤٦ احتفالاً بمرور ستين عاماً على إمامته ، ووزن في القاهرة سنة ١٩٥٦ بالبلاطين بمناسبة الاحتفال بمرور سبعين عاماً على إمامته ، جمع أتباعه من أبناء الطائفة ما يوازي قيمة وزنه بهذه الجواهر وقدموا هذا المبالغ هدية منهم إليه في تلك المناسبات رمزاً لحبهم العميق له وولاء منهم لإمامهم ، ولكن يجب أن نعترف بالحقيقة التي لا يعلمها غير أتباعه أو المتصلين بهم ، وهي أن هذه الأموال التي قدمت إليه في كل هذه المناسبات لم يتسلمها أغا خان ولم تدخل في رصيده الضخم في البنوك ، إنما تسلمها « مجلس إدارة الرابطة الاسماعيليه » للانتفاع بها في نشر التعليم وإنشاء المستشفيات للطائفة ومساعدة المحتاجين — أنى وجدوا من أبناء الطائفة — فمجلس إدارة الرابطة الاسماعيليه هو المسئول الأول أمام أغا خان عن النهوض بالطائفة ورفع مستوى أفرادها في جميع النواحي ، وقد وضع المجلس دستوراً للجمعيات الاسماعيليه في جميع بلاد العالم ،

وتتلخص مواد هذا الدستور في تقسيم الطائفة الاسماعيلية إلى وحدات ، ويشرف على كل وحدة منها أخصائيون اجتماعيون وأساتذة مثقفون وأطباء ، ويتكون منهم مجلس إدارة الوحدة ، وعلى كل وحدة أن تهتم بتعليم أبنائها بالمجان في مدارس خاصة بهم في الوحدة ، وإذا نبع أحد التلاميذ فالوحدة تبعث به لإتمام تعليمه في جامعات إنجلترا ، وإذا أراد التلميذ أن يختصر تعليمه ويتجه إلى التجارة فعلى الوحدة مساعدته مادياً وأديباً حتى ينجح في تجارته ، وعلى الوحدة أن تنشئ المستشفيات الخاصة بالطائفة والعلاج بها بالمجان أيضاً ، ويجب أن يهتم الاسماعيلية في كل الوحدات بالرياضة البدنية وأن يكون شعارهم هو شعار الاسماعيلية الأغاخانية : « طهر نفسك وطهر جسدك » .

وفي ٢٥ أغسطس سنة ١٩٤٨ أصدر أغا خان دستوراً خاصاً للطائفة الاسماعيلية في أفريقيا ، وينص هذا الدستور على تقسيم الطائفة في إفريقيا إلى ثلاثة مراكز رئيسية ، المركز الأول في دار السلام ، والثاني في نيروبي ، والثالث في كامبالا ، أما الاسماعيلية الذين في زنجبار ومدغشقر والكونغو البلجيكي فيتبعون المركز الأول في دار السلام . ويعين أغا خان رئيساً لكل مركز لمدة عام واحد فقط ، وللرئيس سلطة اختيار الذين يعاونونه في الإشراف على الاسماعيلية التابعين له بعد أن يوافق أغا خان على هؤلاء المعاونين ، ونص الدستور على أن يكون السيد محمد علي ميكلاي

رئيساً عاماً لكل هذه المراكز ، وله الرأى الأخير فى كل شىء .
 بعد استشارة أغاخان ، وجاء فى هذا الدستور أيضاً أن كل إسماعيلى
 يريد أن يتطوع لنشر الدعوة الإسماعيلية ، أو أن يكون مدرساً ،
 فعليه أن يعد نفسه لذلك إعداداً خاصاً من الناحية الثقافية العامة
 ومن الناحية الدينية ، على أن تطوعه هذا لا يكسبه أى حق من
 الحقوق بل يلزمه ببعض الواجبات ، وكل الذى يعود عليه من
 تطوعه هو شرف خدمة الدعوة وخدمة الإمام ، ويشترط على كل
 من يتطوع لهذه الخدمة والحصول على هذا الشرف أن يعتمد كل
 البعد عن أى عمل سياسى ، أو الاتصال بأية هيئة سياسية أو شبه
 سياسية حتى لو حملت هذه الهيئة اسماً ثقافياً ، ولا يسمح لنفسه
 أن يقبل هدية ما بطريقة مباشرة أو طريقة غير مباشرة من أى
 شخص أو أية هيئة . كذلك نظم الدستور المواد الدراسية التى
 يجب على المدرسين والبشرين أن يتوسعوا فى دراستها ، وأهم
 المراجع العلمية التى يعتمدون عليها ، وبين الدستور طريقة جمع
 التبرعات من الطائفة وأوجه صرفها . . . الخ ، ومركز قيادة
 الإسماعيلية الرئيسى فى العالم كله مدينة كراتشى صاحمة الباكستان ،
 ومن هذا المركز تصدر التعليقات إلى جميع المراكز الأخرى .
 هكذا أوجد أغاخان تنظيماً جديدة الفرض منها النهوض
 بالطائفة ، وبفضل هذه التنظيمات استطاعت طائفة الإسماعيلية أن
 تبحث من جديد ، وأن تتحد اتحاداً قوياً جداً حتى صار لها هذه

الشهرة الواسعة في جميع أنحاء العالم ، وذلك بفضل شخصية
أغا خان الراحل بالرغم مما عرفه العالم عنه في حياته من حبه للحياة
الصاخبة بين الموائد الخضراء ومضمار سباق الخيل ، وحبه لارتداد
دور اللهو البريء وغير البريء ، حتى عجب الناس من تناقض
شخصيته ، فهو إمام لطائفة دينية يعتقد أتباعه عصمته ، ورفعوه
في التقديس إلى درجة الألوهية ، ثم هو في الوقت نفسه لم يتخرج
عن أن يأتي ما يتنافى مع كل دين من الأديان ، ثم إن المعروف عن
أغا خان أنه كان يسرف في لهوه ومسراته إلى درجة السفه ، وفي
الوقت نفسه كان يقتر ويبخل فلا يدفع ملياً واحداً لغير أبناء
طائفته ، وأذكر أن أحد أتباعه من كينيا جاء إلى مصر إبان
الحرب العالمية الأخيرة ، وأراد أن يفتح متجرّاً ولكنه لم يوفق
إلى العثور على المحل الذي أراده ، فذهب يشكو إلى أغا خان
وكان إذ ذاك في مصر وكنت في زيارته ، فقال له أغا خان :
اذهب وابحث عن المحل الذي يلائمك ، وسأوم على شرائه وسأدفع
لك الثمن . وبالفعل دفع أغا خان حوالى ألفين من الجنيهات (خلو
رجل) لمحل في عمارة الإيموبيليا وتاجر فيه هذا الإسماعيلي ، وبعد
سنة واحدة انتهت الحرب ثم انتقل الإنجليز من القاهرة إلى
منطقة القناة ، فانتقل هذا التاجر الإسماعيلي وراءهم إلى القناة ثم
غاد إلى بلاده بعد ثورة ٢٣ يولييه سنة ١٩٥٢ . وفي نفس الوقت
الذي دفع فيه أغا خان هذا المبلغ لهذا الشاب الإسماعيلي ، دخل

رجل إيراني كبير السن رقيق الحال يسأله المساعدة ، فثار أغا خان في وجهه وطرده . وحدثني أحد أتباعه المقربين إليه أنه إذا أراد أن يساعد شخصاً أو هيئة ، كان يوعز إلى أحد أتباعه الميسورين بذلك فيتولى الدفع باسم أغا خان ، دون أن يخرج هو ملياً واحداً من جيبه . وأتباعه يحفظون عنه كثيراً من النصائح في الاقتصاد وعدم الإنفاق ووجوب ممارسة التجارة ولو برأس مال قليل ، وعدم التدخين وعدم شرب الخمر ، كان يحض أتباعه على ذلك كله ويعظمهم في رسائله وخطبه لاتباع هذه النصائح .

ومن ذكرياتي معه رحمه الله ، أني كنت أناقشه في بعض المسائل الفلسفية الخاصة بتطور عقيدة الاسماعيلية . وطالت المناقشة وتفرعت من موضوع إلى موضوع مما جعلني أعجب أشد الإعجاب بعقليته وثقافته وسعة اطلاعه ، وإحاطته بكل ما يتعلق بالاسماعيلية إحاطة تامة ، فاستأذنته في توجيه سؤال إليه ربما أغضبه ، فلما وعدني بعدم الغضب قلت له :

— لقد أدهشتني بثقافتك وعقليتك ، فكيف تسمح لأتباعك أن يدعوك إليه ؟

فضحك طويلاً جداً وعلت فمهاه ، ودمعت عيناه من كثرة الضحك ثم قال :

— هل تريد الإجابة عن هذا السؤال ، إن القوم في الهند يعبدون البقرة ، ألسنت خيراً من البقرة !!

فلم أحر جواباً بعد ذلك ، وخرجت من عنده وأنا أفكر في هذا الرجل الذي اعتقد فيه أتباعه الألوهية ، أو على الأقل إن نور الله حل به ، وكان هو يعلم أنه ليس بإله ، ولم يمسه نور الله ، ومع ذلك ترك أتباعه في اعتقادهم دون أن يرشدهم إلى الحقيقة ، وترك الناس يتقولون فيه الأقاويل ، وهو يسخر من هؤلاء وهؤلاء ، ويستمر في حياته التي اختارها لنفسه دون أن يجعل لأحاديث الناس عنه أثراً أو يقيم لها وزناً .

كان أغاخان يجيد عدة لغات أوروبية كما كان يجيد اللغة الفارسية والأوردية لغة مسلمي الهند ، ولم يكن يعرف اللغة العربية عبّر عن مدى معرفته العربية فقال « قليلاً كثيراً !! » .

ترك أغاخان ولدين ، الأكبر هو الأمير « علي سليمان خان » والثاني هو الأمير « صدر الدين » ، أما الأمير علي خان فقد ولد في ١٣ يونيه سنة ١٩١٠ م ، من أم إيطالية ، وأمضى طفولته في رعاية أمه متنقلاً بين فرنسا وإيطاليا وسويسرا ، ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره التحق بكلية « مايو » بمدينة أكرابالهند ، وهي كلية خاصة بأبناء المهرجات قبل استقلال الهند ، وكان عميد الكلية رجلاً انجليزياً اسمه « وادينجتون » وبعد أن أتم علي خان في هذه الكلية سنتي دراسته ، تركها ليتلنى عن والده فن الحياة ، وأمضى مع والده عدة سنوات ، تركه بعدها والده ليستقل بحياته الخاصة مع أترابه من الشبان بعد أن نصحه والده بكثرة السفر

والتنقل بين البلدان ليزداد خبرة وتكثر تجاربه في الحياة . وفي
 مايو سنة ١٩٣٦ أحب على خان فتاة إنجليزية تزوجها واعتنقت
 العقيدة الاسماعيليه وأطلقت على نفسها اسم « تاج الدولة »
 واصطحبها على خان في رحلة طويلة إلى الهند سنة ١٩٣٧ ، وإلى
 تركيا وسورية ومصر سنة ١٩٣٨ ، وشاركته في رحلة لصيد
 النمر في الهند وإفريقية ، وقد أنجب منها ولده « كريم » الذي
 تولى إمامة الاسماعيليه بعد وفاة جده أغا خان الثالث ، وأنجبت له
 أيضاً ابنه الثانى « أمين » . ويظهر أن أغاخان كان يريد أن يوصى
 بولايته أحد اثنين من بعده ، ابنه « صدر الدين » أو حفيده
 « كريم » فإنه أمر أن يتقف ابنه صدر الدين وحفيده بالثقافة
 الإسلامية بجانب الثقافة الغربية ، وأن يتعلما اللغتين العربية
 والفارسية بجانب الإنجليزية والفرنسية ، وطلب إلى أن أكون
 مشرفاً على تثقيفهما بالثقافة الإسلامية ولكتى اعتذرت عن ذلك ،
 فطلب منى أن أضع لهما المنهج الذى يجب أن يسيرا عليه ، وأن
 أبين للأستاذ الذى جاء لتثقيفهما من الهند أبرز الموضوعات التى
 يجب أن يهتم بها ، ولذلك لم أدهش عند ما قيل لى إن أغا خان
 الراحل أوصى لحفيده كريم خان بإمامة الطائفة من بعده ، حقيقة
 كان أفراد طائفة الاسماعيليه منقسمين على أنفسهم أثناء مرض
 أغا خان ، وكل جماعة يرشحون إمامهم المنتظر ، ولم أسمع أن أحداً
 منهم رشح الأمير على خان إلا اسماعيليه الشام فقط ، وكنت

بالهند أثناء مرض أغا خان ، وسمعت مناقشات وجدال الاسماعيليه حول الإمام الذي يختارونه من بعد أغا خان . وسألني بعضهم عن رأيي في شخصية كل فرد من أفراد أسرة أغا خان ، ولكنني اعتذرت عن الإجابة عن شيء لا يعنيني أو الدخول معهم في مناقشة موضوع هو موضوعهم ، واكتفيت بأن أعرف اتجاههم وآراءهم ، مما لا أستطيع أن أثبتته في هذا الكتاب ، وقد علم الجميع بعد وفاة أغا خان وصيته بتوليته حفيده كريم ، فبدأ بعض أفراد الطائفة يسخرون من هذا الاختيار لأسباب لا أستطيع أن أذكرها هنا لأنها شخصية خالصة ، وغضب إسماعيلية الشام ، فاضطر الأمير على خان إلى أن يسافر إليهم لإقناعهم بقبول وصية إمامهم الراحل خشية الانقسام بين الطائفة ، ولا ندرى ماذا ستأتي به الأيام المقبلة .

هكذا كان تاريخ الاسماعيليه ، تاريخ طويل حافل بالحوادث ، مليء بالمفاجآت ، كثر فيه المد والجزر من انتشار سلطان الاسماعيليه ونفوذهم ، وكثرة تعرضهم للقتل والاضطهاد ، دافعوا عن وجودهم وكيانهم بطرق مختلفة ، منها سلاح العلم ، ومنها سلاح الغدر والاختيال ، رامهم أعداؤهم بكل موبقة فلم يأبهوا ، وطعنهم أعداؤهم بالكفر والإلحاد فردوا هذه الطعنات ، ولا يزالون إلى الآن يتمتعون بوحدتهم وقيمون شعائر مذهبهم ، ويحاولون اليوم تجديد مجدهم .

الفصل السابع

أسرار نظام الاسماعيليه

في حديثنا عن تاريخ الطائفة الاسماعيليه ، رأينا كيف استطاعت أن تبسط سلطانها ونفوذها في بلاد مختلفة من العالم الإسلامى وفي أزمنة مختلفة ، وفي الوقت الذى ظهر فيه عبيد الله المهدي ببلاد المغرب وأسس الدولة الفاطمية الاسماعيليه ، كان له أتباع يدينون بطاعته وإمامته في بلاد فارس ، وبلاد اليمن ، وفي العراق ومصر ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان للإسماعيليه نظم خاصة للدعاية لمذهبهم وإمامهم ، وكان لهم دعاة محنكون من ذوى المواهب الخاصة استطاع بهم إمامهم أن ينشر دعوته وعقيدتهم في هذه البلاد التي كانت تدين بالطاعة للخليفة العباسى ، والحق أقول إنى لم أجد في تاريخ العصور الوسطى في دولة من الدول أو طائفة من الطوائف اهتماماً خاصاً بالدعاية وتنظيمها على النحو الذى وجدته عند طائفة الاسماعيليه ، فلا غرو أن أزعج أنهم أساندة فن الدعاية في العالم ، حقيقة كان للمعتزلة دعاة ينادون بأرائهم ، وكان للشيعة الاثني عشرية دعاة يبشرون بالمهدى المنتظر من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان للزيدية دعاة أيضاً ، ولكن دعاة

هذه الفرق لم ينظموا التنظيم الدقيق الذي كان للإسماعيلية ، ولذلك لم يكن لهذه الفرق من التاريخ ما للإسماعيلية ، وذلك بفضل الدعاية ونظمها ، وقد لست من بعض مقابلاتي مع بعض المستشرقين الأمريكيين أنهم يريدون معرفة أسرار نظم الدعوة الإسماعيلية ، ونحن نعرف أن الأمريكيين يجيدون فن الدعاية ويتخذون لها وسائل مختلفة ، غير أنهم لم يبلغوا بعد ما بلغته دعاية الطائفة الإسماعيلية بالرغم من أدوات الدعاية الأمريكية والمخترعات الحديثة والدولارات الأمريكية .

جعل الإسماعيلية الدعاية من صميم عقيدتهم وفلسفتهم ، وتقوم فلسفتهم المذهبية على التأمل في نظم الكون والمخلوقات التي تحيط بالإنسان وتطبيق هذه النظم كلها على الدين ، واستفادوا في ذلك بكل الآراء التي قال بها الفلاسفة القدماء ، وبكل الديانات والعقائد القديمة ومرجوا ذلك كله بالدين الإسلامي ، فاستنبطوا بذلك عقيدة هي مزيج عجيب من كل الفلسفات وكل الديانات — وسنتحدث عن ذلك في الفصل التالي — وأضافوا إلى ذلك كله فن الدعاية ، بحيث جعلوا الدعاة من حدود الدين ، وذلك إمعاناً منهم في إسباغ الفضائل على هؤلاء الدعاة الذين يبشرون بالأئمة وبعقيدتهم المذهبية حتى يستطيع الداعي أن يوجه أتباع المذهب كيفما شاء ، وأن يكون كلامه لهم من صميم المذهب ، فلا يحاجه أحد ولا يخالفه إلا كل مارق عن المذهب ، فإسباغ شيء من التقديس على الداعي

كان من عوامل نجاح الداعي في مهمته لما كان للدين من أثر قوى في نفوس الجماهير . وذهب الأئمة إلى أبعد من ذلك بحيث أنى لا أغالى إن قلت إن حضارتهم في العصر الفاطمى في مصر كان أساسها الدعاية قبل كل شيء ، فهم لم يشجعوا الشعراء والأدباء إلا ليكونوا السنة لهم ، وهم لم يعملوا على الحصول على الطرائف والنفائس إلا ليباهوا بها أعداءهم ، وهم لم يسرفوا في إقامة الحفلات والأعياد وما تبع ذلك من إقامة الموائد للشعب في كل مناسبة إلا من قبيل الدعاية ، وكان لهم العذر في ذلك كله ، إذ كان أعداؤهم محيطين بهم من كل جانب وكان لهم أعداء يتربصون بهم داخل دولتهم الواسعة المترامية الأطراف ، فكان عليهم أن يظهرُوا أمام هؤلاء الأعداء جميعاً بمظهر القوى الغنى المترف حتى يهابهم أعداؤهم ، كان ذلك بعد أن ظهر أئمة الاسماعيليه على مسرح الحياة السياسية ، وكونوا لهم دولتهم العتيده التي عرفت بالدولة الفاطمية ، أما قبل ظهور هذه الدولة بينما كان الأئمة في دور الستر ، فكان لا بد لهم من دعاة يدعون لهم سراً ويبشرون الناس بقرب ظهورهم ، حتى تم للإمام الاسماعيلي تأسيس ملكه ، فالدعاية إذن هي الوسيلة التي اتخذوها لتحقيق نجاحهم في دور الستر وفي دور الظهور معاً ، ومن ثم كان اهتمامهم بأمر الدعاية وأمر الدعاة حتى جعلوا الدعاية من صميم المذهب الاسماعيلي .

نظم الاسماعيليه الدعاية تنظيمًا دقيقاً هو نفسه نظام دورة

الفلك ، فقد جعلوا العالم — الذى كان معروفاً فى عصرهم — مثل السنة الزمنية ، فالسنة مقسمة إلى اثنى عشر شهراً ، وإذن فيجب أن يقسم العالم إلى اثنى عشر قسماً ، وسماوا كل قسم « جزيرة » ، ولا نعلم إلى الآن الأساس الذى قسموا بمقتضاه العالم إلى هذه الجزر ، فإننا نراهم أحياناً يطلقون جزيرة مصر ويريدون بها بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب معاً ، ويقولون جزيرة العراق ويقصدون بها بلاد العراق وبلوخستان ، ويطلقون على منطقة فارس وكرمان من إيران جزيرة فارس ، فتحديد الجزائر لم يزل سراً لم يستطع الباحثون الوصول إليه إلى الآن ، وكذلك تقول عن أسماء هذه الجزائر ، فقد حاول الأستاذ المستشرق و. إيفانوف أن يذكرها ولكنه وجد اختلافات عديدة فى أسمائها ؛ ومهما يكن من شىء فإنهم جعلوا على كل جزيرة من هذه الجزر داعياً هو المسئول الأول عن الدعاية فيها ، وكان يطلق على هذا الداعى لقب « داعى دعاة الجزيرة » أو « حجة الجزيرة » .

والشهر ثلاثون يوماً ، ولذلك كان لكل داعى جزيرة ثلاثون داعياً تقبلاً لمساعدته فى نشر الدعوة ، وهم قوته التى يستعين بها فى مجابهة الخصوم ، وهم عيونهم التى بها يعرف أسرار الخاصة والعامه ، فكانوا بمثابة وزراءه ومستشاريه فى كل ما يتعلق بجزيرته .

واليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة ، اثنتى عشرة ساعة

بالليل ، واثنى عشرة ساعة بالنهار ، فجعل الاسماعيليه لكل داعٍ
نقيب أربعة وعشرين داعياً منهم اثنا عشر داعياً ظاهراً كظهور
الشمس بالنهار ، واثناء عشر داعياً محجوباً مستتراً استتار الشمس
بالليل . وبعملية إحصائية بسيطة نجد أن عدد الدعاة الذين بهم
الاسماعيليه في العالم كان حوالى ٨٦٤٠ داعياً ، فى وقت واحد ،
وذلك بخلاف عدد آخر من الدعاة لا يشملهم هذا الإحصاء ،
وهم الدعاة الذين يكونون دائماً مع الإمام فى مقره ، وكانهم بمثابة
القيادة العليا للدعوة . فلعل هذا العدد الضخم من الدعاة الذين
بهم الاسماعيليه فى بلاد العالم كان كافياً لتحويل عدد من الناس
إلى المذهب الاسماعيلى واستطاعوا بهم أن يؤسسوا هذه الدول
الاسماعيليه التى تحدثنا عنها أو القيام بهذه الحركات السياسيه التى
ذكرناها . كان لكل فئة من هؤلاء الدعاة عمل خاص لا يتعداه
إمعاناً فى سرية الدعوة وحفظاً لنظمها ، فدعاة النهار الاثنى عشر
فى كل جزيرة كانوا يعرفون بالمكاسرين أو المكالبين وهم أصغر
طبقة من درجات الدعاة ، كانت وظيفتهم أن يشككوا الناس
فى عقيدتهم ولا يتجاوزون ذلك إلى أى عمل آخر ، كان عليهم أن
ينتهزوا أية فرصة أمامهم بإلقاء الأسئلة على العلماء والفقهاء أمام جماهير
الناس وكانهم تلاميذ يريدون الإفاده من أسألتهم ، دون أن يخالج
الشك العلماء والفقهاء أو الجماهير المجتمعة للأخذ عن هؤلاء العلماء
أو الفقهاء ، كانت الأسئلة تدور حول مشكلات الدين أو تفسير

بعض الآيات المتشابهة في القرآن الكريم واختلاف المفسرين فيها ، ويأخذ الداعي المكاسر في مجادلة هؤلاء العلماء والفقهاء ومناقشته مناقشة علمية عنيفة حتى يظهر عجز العالم عن الجواب الصحيح ، أو تبدو منه أخطاء فيسخر منه الداعي المكاسر ويتركه ، وهنا يظهر الشك على كل ضعيف مزعزع العقيدة من الجماهير ، فيسرع إلى الداعي المكاسر يلتمس منه الجواب الشافي عن هذه الأسئلة التي طرحها والموضوعات التي ناقش فيها العلماء ، فلا يجد عند المكاسر سوى أسئلة أخرى تحيره وتزيد في تزعزع عقيدته ، والمكاسر لا يفصح عن شيء وينكر معرفته بالجواب في أول الأمر ، كانت أسئلة الداعي المكاسر مما لا يمكن أن يجيب عنها أحد ، فمثلاً : لم خلق الله العالم في ستة أيام؟ ولم جعل الله السموات سبعا ولم يجعلها أكثر أو أقل من ذلك؟ لم وجب الغسل من المني مع طهارته ، والاستنجاء من البول مع نجاسته؟ ما معنى الحروف التي في أوائل السور؟ ومن هم حملة العرش الثمانية؟ فهذه أمثلة لبعض تلك الأسئلة التي كان يوجهها الداعي المكاسر إلى العلماء وكأنه يريد أن يستفيد منهم ، ويوجهها إلى الناس وكأنه يشك في العقيدة . وواضح أن الداعي المكاسر كان يختار اختياراً خاصاً ، ولا يسمح له بالمكاسرة إلا بعد امتحان عسير وتجارب كثيرة ، ونجد بعض كتب الاسمايلية تؤلف في اختيار الداعي المكاسر والشروط التي يجب أن تتوافر فيه

والخصال التي يجب أن يتحلى بها ، من ذلك أنه يجب أن يكون من نفس البيئة التي سيكاسر فيها ، ولد ونشأ بها حتى يكون معروفاً عند الجمهور ، ويجب أن يكون حسيباً ونسيباً بين قومه ، فالحسب والنسب يكسبانه بعض الاحترام ، وأن يكون معروفاً بالصدق والأمانة والتقى والورع ، فهذه الصفات تزيد احتراماً بين قومه ، فإذا وثق داعي الجزيرة في شخص يتحلى بكل هذه الصفات بدأ في تعليمه العلوم الإسلامية حتى يتبحر فيها ، فإذا فرغ من ذلك ، أخذ يلقيه مسائل اختلاف المذاهب وآراء أهل الملل والنحل كلها من فرق إسلامية وغير إسلامية ، ويبرز له مواطن الضعف في كل مذهب وفي كل رأى ، ثم يعلمه كيف يجادل في اختلاف هذه الآراء وكيف يناقش أصحابها ، فإذا تم له ذلك يبدأ الداعى في تدريبه على تفهم نفسية كل جماعة من الجماعات ، وكيف يخاطب كل طائفة من الطوائف حتى يستميل الناس إليه ، فإذا أتقن الشخص كل هذه الأمور وتدرّب عليها ، ونجح فيها النجاح الملحوظ سمح له الداعى أن يكاسر الفرق الأخرى دون أن يشعر أحداً بأنه اسماعيلي المذهب بل يجب أن يكتم ذلك كتماناً تاماً ، ويستر مذهبه وعقيدته سترًا تاماً حتى لا يفتن أحد إلى ما يرى إليه أو يشك فيه أحد ، كان عليه أن يتظاهر أمام جمهور أهل السنة بأنه سنى متعصب ، ويتظاهر أمام أهل الشيعة بأنه شيعى متطرف ، وأمام الصوفية بأنه من الأقطاب ، وأمام المسيحيين

بأنه منهم ، وهكذا كان يخاطب كل قوم حسب عقيدتهم ومذهبهم وعقليتهم ، ولذلك يجب أن يكون المكاسر ذكياً ذا فراسة حتى لا يخطئ في معرفة نفسية المجتمع أو تقدير الناس الذين يخاطبهم ، فإذا فرض ووجد المكاسر أمامه خصماً عنيداً أكثر منه علماً وتبحراً في مختلف الفنون ، فكان على المكاسر أن يلج في المسائل الفلسفية العميقة التي لا حد لها والتي لا يفهمها العامة ، ويدخل معه في مناقشات باطنية هي من أخص خواص الفلسفة الاسماعيلية التي لا يعرفها غير الدعاة . وبذلك فقط ينجو المكاسر من الظهور بمظهر الضعف أمام العامة ، بل ربما عظم شأنه في أعينهم لأنه يتحدث عن أشياء لا يفهمونها ولا يعرفون كنهها ، هكذا كان شأن الداعي المكاسر أو « الداعي السكالب » الذي كانت مرتبته أقل مراتب النظام الاسماعيلية للدعاة ، فإذا كان هذا هو شأن أصغر الدعاة استطعنا في سهولة أن ندرك ما كان عليه أمر كبار الدعاة على اختلاف درجاتهم وتباين مراتبهم .

إذا نجح الداعي المكاسر في تشكيك شخص من الأشخاص ، وكان هذا الشخص ممن يريدون الوصول إلى معرفة الحقيقة ، صادقه الداعي المكاسر مدة ، وألح عليه في التشكيك حتى يزعمه نهائياً عن مذهبه ، وأخيراً يتلطف به الداعي ، ويعلم له أنه سيرفده بمن عنده علم الحقيقة ، ثم يتركه مدة نهب الأفكار والآراء ، ويحاول الداعي المكاسر أن يمتحن عنه طوال هذه المدة ، ثم

يذهب إليه بعد ذلك ويأخذه إلى أحد الدعاة الذين هم أرق منه مرتبة ، ويصفه له المكاسر بأنه العالم الحبر الذي على يديه يزول الشك من النفس لغزارة علمه وسعة اطلاعه وحميد خلقه ، فيتقرب هذا الداعي إلى الشخص ويلاطفه حتى يطمئن إليه ويأخذ في التحدث إليه في رفق ويفاتحه في لين دون أن يظهر له صفته المذهبية أو شيئاً من عقائده ، بل يكتفي بأن يفسر له بعض المشكلات والمسائل المذهبية تفسيراً هو أقرب إلى آراء أهل الجماعة ، ويلمح له ببعض التأولات الباطنية التي لا ضير من كشفها وذبوعها ، فإذا رأى هذا الداعي منه إصراراً على الوصول إلى معرفة الحقيقة كاملة ، ورغبة في التزود بمثل هذه التأويلات الباطنية أحاله إلى الداعي المأذون وهو من دعاة الليل الذي يبدأ بأخذ العهود والمواثيق المؤكدة عليه بأن لا يفشى سراً ، ولا يطلع على آرائه أحداً من الناس ، فإذا وثق به بدأ يكشفه ببعض الأسرار الخفيفة التي لا يزعج منها أحد ولا ينفر منها مؤمن ، ولا يزال يتدرج به من رأى إلى رأى ومن مسألة إلى مسألة ، حتى يطمئن الداعي المأذون إليه تمام الاطمئنان ، ويطمئن المستجيب إلى الداعي ، عندئذ ينقله إلى الداعي الذي هو أرق منه رتبة ، فيبدأ بأن بصرح له بأسرار أشد تعقيداً ، وهكذا يتدرج المستجيب بين الدعاة حتى يسمح له أخيراً بحضور مجالس داعي دعاة الجزيرة وهو كبير دعائها الذي كان له وحده الحق في أن يعلم الناس

التأويلات الباطنية للدين والقرآن والحديث ، كما كان له الحق في تعليم الدعاة فلسفة الدعوة المذهبية (أى علم الحقيقة) فإن سمح للمستجيب أن يستمع إلى محاضرات داعى دعاة الجزيرة فقد هيا نفسه بذلك لأن يكون داعياً ، حقيقة كان داعى دعاة الجزيرة يلقى أحاديث على العامة الذين أخذت عليهم العهود والمواثيق دون أن يصلوا بعد إلى درجة عالية في علوم الدعوة ، ولكن هذه المحاضرات كانت بعيدة عن الأسرار الاسماعيلية العليا .

هكذا نظم الاسماعيلية دعائهم تنظيماً دقيقاً جداً بأن جعلوا لكل داعية عملاً خاصاً لا يتعداه ، واختاروا هؤلاء الدعاة اختياراً دقيقاً وأعدوهم هذا الإعداد حتى يستطيعوا أن يقوموا بما يعهد إليهم ، وإيماناً منهم في تكريم الدعاة وإسباغ المناقب عليهم أطلقوا عليهم « حدود الدين » الذين يجب أن يعرفهم ويتوالاهم جميع المؤمنين ، بل قالوا إن الملائكة هم هؤلاء الدعاة ، ولذلك قال أحد شعرائهم من الدعاة :

أنا آدمى في الرواء حقيقتى مَلَكٌ تبين ذلك للمسترشد
وقال المؤيد في الدين داعى الدعاة أيضاً :

وروائى جسم ومحصول جسمى مَلَكٌ دونه الخطوب الجسام
فأنت ترى الشاعر يمر عن حقيقة نفسه حسب عقيدته
ومرتبته في الدعوة بأن مظهره مظهر آدمى ، ولكنه من الملائكة في الحقيقة ، وهذا بالطبع مما ذهب إليه العقيدة الاسماعيلية .

أما الدعاة الذين يكونون « القيادة العليا » للدعوة ، والذين يكونون حول الإمام الاسماعيلي دائماً ، فإن الإمام يختار من دعاة الجزائر أقواهم بناناً ، وأصدقهم جناناً وأغزرهم علماً ، فيجعله في مرتبة « داعي الدعاة » فيكون هو المالك لجماعة الدعاة ، وإليه الإشراف على الدعوة في جميع الجزائر ، وهو الواسطة بين دعاة الجزائر وبين الإمام ، فداعي الدعاة إذن لا يستر بل هو معروف بين الدعاة جميعاً وبين رجال حاشية الإمام في أدوار السر والجمهور ، لأن مرتبته ليست من المراتب السرية ، وكان عليه أن يعقد مجالس الحكمة التأويلية على اختلاف درجاتها ، فكانت هناك مجالس تعقد للخاصة ، وأخرى للعامة ، ومجالس تعقد للنساء وهكذا ، ويذهب المقرئى إلى أن مرتبة داعي الدعاة كانت من مفردات الدولة الفاطمية في مصر ، بمعنى أن هذه الدولة هي التي جعلت وظيفة عمومية هامة للدعاية المذهبية دون غيرها من الدول ، والمقرئى على حق في هذا القول لأنه لم يحدث في دولة من الدول في العصور الوسطى أن خصص مثل هذا المنصب للدعاية في داخل الدولة وفي خارجها .

ومع مرتبة داعي الدعاة كانت هناك مرتبة أخرى هي مرتبة «الحجة» ويقال لصاحبها «حجة الإمام» وكان الإمام أحياناً يولى مرتبة داعي الدعاة ومرتبة الحجة لشخص واحد ، فقد كان المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٠ هـ داعياً للدعاة وحجة في

الوقت نفسه ، وأحياناً أخرى كان يجعل كل مرتبة لشخص ،
وفي هذه الحالة يستر اسم صاحب مرتبة الحجّة فلا يعرفه أحد حتى
داعى الدعاة نفسه . فالمرتبة إذن مرتبة سرية في أغلب الأحيان ،
ولذلك لم نعرف سوى أفراد قلائل ممن شغل هذه المرتبة طوال
تاريخ الاسماعيلية ، وهناك مرتبة سرية أخرى هي مرتبة « باب
الأبواب » ولا يعرف شاغل هذه المرتبة إلا الإمام فقط ، وقد
وصف أحد علماء الاسماعيلية هذه المرتبة بقوله « وحد الباب هو
من الحدود الصفوة واللباب فهو أفضل الحدود وهو حد العصمة
ولا ينتهى إلى ذلك إلا الآحاد والأفراد » أى أنه يصرح بأنه في
تاريخ الاسماعيلية الطويل لم يصل إلى هذه المرتبة إلا أفراد قلائل
يعدون بالآحاد ، ويقول عالم آخر « باب الأبواب هو باب صاحب
الزمان الذى يؤتى منه إليه وحجته على الخلق وحامل علمه وصاحب
دعوته » فمرتبة باب الأبواب أو « الباب » فقط مرتبة رفيعة تلى
مرتبة الإمام الدينية مباشرة ، وهى مرتبة سرية ، وإلى الآن
لم يكشف عن أولئك الذين شغلوا هذه المرتبة ولا عن العمل الذى
كانوا يقومون به ، غير أن داعى أحمد حميد الدين الكرمانى
ذكر فى كتابه « راحة العقل » هذه المرتبة فى ترتيب مراتب
الدعوة فقال « الباب وله مرتبة فصل الخطاب » ولم يفصل شيئاً
أكثر من ذلك .

ويحيل إلى أن مرتبة باب الأبواب أخذت من كتابات

اينوميس أحد كتاب الأدب الكنسى في القرن الرابع الميلادي الذي قال « إن عيسى باب معرفة الله » أو من قول الشيعة إن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أنا مدينة العلم وعلى بابها » ، ومهما يكن من شيء فإن هذه المرتبة لا تزال غامضة إلى الآن . ومثلها في ذلك أيضا مرتبة أخرى هي مرتبة « داعي البلاغ » التي قيل إنها مرتبة الاحتجاج بالبرهان في إثبات الحدود العلوية ومراتبها وتعريف المعاد ، فهي من المراتب السرية التي في مركز القيادة العليا ، ولم يفصل مؤرخو الاسماعيلية وعلماءها أمر هذه المرتبة .

وعلى ذلك نستطيع أن نرتب مراتب كبار الدعاة الذين كانوا يلزمون مقر الإمامة على النحو الآتي :

أولا : مرتبة باب الأبواب ، وهي أعلا المراتب كلها وهي مرتبة سرية .

ثانيا : مرتبة الحججة .

ثالثا : مرتبة داعي البلاغ .

رابعا : مرتبة داعي الدعاة أو الداعي المطلق ، وهي أعلا مرتبة ظاهرة .

هذه مراتب الدعاة في النظام الاسماعيلي الذي وضع للدعاية ، وقد اجتهدوا أن لا يخلو بلد من دعائهم حتى إن المعز لدين الله الفاطمي قال : إن أكثر الناس يجهلون أمرنا ولا يظنون أنا

لانعنى إلا بمن شاهدناه وكان بحضرتنا ، ولو كان ذلك لكنا قد
ضيعنا من بعدنا ، وقد أوجب الله على جميع خلقه ولايتنا
ومعرفتنا وأتباع أمرنا والهجرة والسعى إلينا من قرب ومن بعد ،
ولكننا للرافة بهم ولما نرجوه ونحبه من هدايتهم قد نصبنا
بكل جزيرة لهم من يهديهم إلينا ويدلهم علينا . وبفضل هذا
التنظيم انتشرت الدعوة الاسماعيلية في جميع الأقاليم وبين كل
الطبقات ، وقوى نفوذ الاسماعيلية في بعض البلاد على نحو
ما ذكرناه من قبل ، كما أننا تحدثنا عن لون آخر من ألوان الدعاية
فإن الإمام الفاطمي كان يستدعى أبناء كبار رجال الدولة ووجوهها
ليقيموا معه في القصر ، ويربهم تربية خاصة حتى إذا أصبحوا
في مقام الرجال ولآثم الإمام الإمارات والولايات ، أو استعان بهم
في مهامه ، وبذلك استطاع أن يطمئن إلى ولاء هذه الإمارات
والولايات له دائماً وعدم الخروج عن طاعته ، فإن هؤلاء الولاة
كانوا بمثابة أبناء الإمام بما غرسه فيهم من تعاليم منذ الصغر
فنشأوا على حبه وطاعته .

أما النظام الذي وضعه الحسن بن الصباح لدعوته الجديدة
فكان ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول الخاص بالدعاية الدينية فهو شبيه إلى حد بعيد
بما كان عليه أيام الفاطميين بمصر ، ولكن عدد الدعاة تقلص
ونقص بأن جعل « الشيخ » في مرتبة داعي الدعاة وله ثلاثة

تواب فقط في الجبل وخوزستان والشام ، ومع كل نائب عدد غير محدود من الدعاة الذين كانوا يدعون الناس للعقيدة الاسماعيليه الزارية .

أما القسم الثاني فهو خاص بالفدائيين ، وهؤلاء كانوا يتبعون شيخ الجبل نفسه مباشرة ، كانوا شبه حرس خاص له وهو في الوقت نفسه قائدهم الأعلى يتلقون منه الأوامر مباشرة ، ولكنهم على ثلاث درجات : أولا ، مرتبة الرفاق وهم أشبه شيء برؤساء الفرق الذين كانوا يدرّبون الفدائيين ويشرفون على حاجياتهم ومطالبهم ، والمرتبة الثانية هي مرتبة الفدائيين وهم المجددون للقيام بما يأمرهم به شيخ الجبل بعد أن تم تدريبهم وأظهروا استعدادهم للتضحية في سبيل إمامهم ومذهبهم ، أما المرتبة الثالثة فهي مرتبة المستجيبين وهم الذين في دور التدريب والتعليم وهؤلاء كانوا من الشبان الذين لا يزيد عمر الواحد منهم على عشرين عاما ، وهؤلاء كانوا في صغرهم يدرّبون بإشراف شيخ الجبل في قصره .

ونفس هذا النظام الذي وضعه ابن الصباح في فارس طبقه شيوخ الجبل في بلاد الشام ، وساروا على نهجه .

أما الآن فالاسماعيليه البهرة يعملون في كل بلد من البلدان التي فيها جماعة منهم رجلا من رجال الدين الذين نخرجوا في « الجامعة السيفية » بمدينة سورات ، ويطلقون عليه لقب « عامل » وهو الذي يجمع من الطائفة « الخمس » أي خمس

ما يكسبه كل إسماعيلي سنوياً ، « السلة فطرة » أى الهدايا التي تقدم للداعي المطلق بمناسبة عيد الفطر . أو غيره من المناسبات ، ويقوم على كل شؤونهم الدينية من زواج وطلاق وصلاة . الخ . وللإسماعيلية النزارية كذلك داعية في كل مجتمع يعيشون فيه يطلقون عليه لقب « السكي » وهو يقوم أيضاً بما يقوم به « العامل » عند طائفة البهرة ، ولا وجود للفدائيين الآن ولا للنظام السرى الذي كان معروفاً من قبل ، واختفت ألقاب ومراتب الدعوة القديمة ولم يبق منها سوى لقب الداعي المطلق الذي لداعي البهرة ، والحق أن اختفاء الألقاب عند الإسماعيلية النزارية كان منذ قيام الحسن بن الصباح بدعوته في فارس ، إذ اضطره نظامه الجديد إلى بعض التغييرات في العقائد والنظام الاجتماعى والسياسى ، وقد قام صراع بين التيارات المذهبية الإسماعيلية القديمة بما فيها من مصطلحات عربية ، وبين المصطلحات الفارسية الجديدة التي أتى بها ابن الصباح ، وهى مصطلحات متأثرة إلى حد بعيد بالمصطلحات الصوفية ، فاختلفت درجات الدعاة التي كانت في عصور دور الستروفي العصر الفاطمى مثل الحجة وداعى الدعاة وداعى البلاغ . . الخ ، وأصبح لقب « پير » بدلا من الحجة ، ولقب « مُلّا » أو « آخوند » بدلا من الداعى . وبعد الغزو المغولى وتشتت الإسماعيلية في آسيا الوسطى والهند ، وأصبح عبء جمع شمل الطائفة يقع دائماً على البير ، ولذلك لا ندهش أن نجد

« البير » كان عادة أقرب المقربين إلى الإمام إن لم يكن من أقرب أقاربه إليه وأنه جوهر الإمامة ، نقول ذلك بالرغم من المعلومات الضئيلة التي وصلتنا عن النزارية بعد تشتتهم على أيدي المغول ، فإن المؤلفات الاسماعيلية عن تلك الفترة لم تصل إلينا ، ويغلب على الظن أن نشاط الدعاة لنشر الدعوة المذهبية قد انتهى تقريباً ، وكرست الجهود إلى إنقاذ بقايا الاسماعيلية ولم شعهم ، أما الاسماعيلية في فارس إبان حكم الصفويين الذين اتخذوا عقيدة الشيعة الاثني عشرية مذهباً رسمياً للدولة فلا نعرف عن نظمهم شيئاً إلا أن « البير » كان في زى الصوفية وأنه كان يخلط التعاليم الاسماعيلية النزارية بالأراء الصوفية .

الفصل الثامن

عقائد الاسماعيلية

لعلك لاحظت مما سبق أن العقائد الاسماعيلية كانت السبب الأول لظهور طائفة الاسماعيلية ، فلو لا أن فريقا من الناس اجتمعوا على رأى فى الإمامة يخالف ما قال به الآخرون ، ودعوا إلى رأيهم هذا بالوسائل والطرق السرية التى أشرنا إليها ، لولا ذلك كله ما وجدت هذه الفرقة ، وكان الخلاف فى أول الأمر بسيطاً لا يعدو أن يكون حول الإمامة ، ولكنه استفحل بعد ذلك ، وبمضى الزمن أدخلت آراء جديدة وأصول للعقيدة تبعد عما كانت عليه الطائفة قبل خروجها عن حلبة التشيع العامة ، وسأحدث الآن عن عقائد الاسماعيلية بعد ان تبلورت ووضع فيها علماء الدعوة كتباً عرفت باسم « كتب الحقيقة » ، ولكنى قبل أن أحدث عن هذه العقائد أرى أن أشير إلى عدة نواحٍ رئيسية هامة فى دراسة العقائد الاسماعيلية ، فأول ما يكون من ذلك أن العبادة العملية (أى علم الظاهر وهو ما يتصل بفرائض الدين وأركانها) والعبادة العملية (أى علم الباطن من تأويل وغيره) والمثل العليا للتنظيمات الاجتماعية ، والمثل العليا للإدارة السياسية ،

هذه كلها كانت عند الاسماعيليه من صميم العقائد ، وكل من هذه
النقط الأربع الرئيسية في حياة الاسماعيليه متداخل في الأخرى
تداخلا كلياً ، وتعتمد كل واحدة على الأخرى اعتماداً تاماً بحيث
أصبح من الصعب أن نفرق بينها أو أن نتخذ نقطة واحدة منها
على أنها عقيدة الاسماعيليه ، ولذلك أخطأ القدماء في إطلاق لقب
«الباطنية» على فرقة الاسماعيليه ، لأن هذه الفرقة تدين بالباطن ،
والاسماعيليه يقولون بالباطن حقاً ولكنهم يقولون بالظاهر أيضاً ،
وأوجبوا الاعتقاد بالظاهر والباطن معاً ، بل كفروا من اعتقد
بالباطن من دون الظاهر أو بالظاهر من دون الباطن ، وفي ذلك
يقول الداعي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي « من عمل بالباطن
والظاهر معاً فهو منا ، ومن عمل بأحدهما دون الآخر فالكلب
خير منه وليس منا » . فالاسماعيليه لا يقولون بالباطن فقط كما وهم
القدماء ، بل إن الظاهر أساسى من أسس عقيدتهم أيضاً . وقد
رأينا تنظيمهم للدعاية التي تغلغت في نظمهم الاجتماعيه والساسيه
فأصبحت نظمهم تتوقف على معرفة الظاهر والباطن ، كما يتوقف
الظاهر والباطن على تلك النظم ، غير أن تطور الأحوال الاجتماعيه
والسياسيه بمرور السنين وتغيرها حسب مقتضى الحال جعل
العقيدة الاسماعيليه متطورة أيضاً ، بل اختلفت العقيدة الاسماعيليه
في كل قطر عما هي عليه في قطر آخر في الوقت الواحد ، ففي
زمن واحد نستطيع أن تبين عقائد مختلفه متضاربه تنسب كلها

إلى الاسماعيلية ، وهذا الاختلاف عندي هو نتيجة لما كان يذيعه
الدعاة المختلفون في البلدان المختلفة ، فهما أخذ هؤلاء الدعاة عن
مصدر واحد ، فلا شك أنهم مختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً
بحسب شخصية كل واحد ، وحسب مقدار فهمه للعقائد
أو تأويله الباطني للأمور الدينية كانوا مختلفين في ثقافتهم ،
ومختلفين في عقلياتهم ، أضف إلى ذلك اختلاف المجتمعات التي
يعيشون فيها ، فمنهم من كان يدعو بين الدهماء والسذج ، ومنهم
من كان يدعو بين جمهور مثقف متحضر ، فكان لا بد أن نجد
اختلافاً بين هؤلاء الدعاة فيما كانوا يذيعونه على الناس ، ولندكر
على سبيل المثال لا الحصر أن الداعي النخشي - وكان من الدعاة
في الدولة السامانية وقتل سنة ٣٣١ هـ وضع كتاباً في فلسفة
العقيدة الاسماعيلية سماه كتاب « المحصول » ، وفي نفس الوقت
وضع الداعي أبو حاتم الرازي الداعي ببلاد الديلم كتابه « الإصلاح »
خالف فيه آراء زميله النخشي مخالفة تامة ، ثم جاء الداعي
أبو يعقوب السجستاني وكان ببخارى وقتل سنة ٣٣١ هـ وألف
كتاب « النصر في شرح ما قاله الشيخ الحامد في كتاب المحصول »
انتصر فيه للداعي النخشي وخالف زميله أبا حاتم الرازي ،
ولسكنه أتى بآراء جديدة لم ترد عند الشيخين السابقين ، ثم جاء
بعده داعي العراقيين وأكبر فلاسفة الدعوة الاسماعيلية على
الإطلاق وهو حميد الدين الكرماني التوفي بعد سنة ٤١١ هـ

فألف كتابه « الرياض » حاول فيه التوفيق بين كل هذه الآراء المختلفة ، فظاهر إذن اختلاف هؤلاء الدعاة الذين ذكرناهم وهؤلاء يمدون شيوخ الدعوة وكبار علمائها في القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس من الهجرة ، وعندهم أخذ غيرهم من الدعاة والعلماء ، فإذا كان شيوخ الدعوة أنفسهم قد اختلفوا على هذا النحو فماذا نقول عن الدعاة الآخرين ، وإذا قرأنا كتب هؤلاء الدعاة وقارناها بما كتبه جعفر بن منصور اليميني أو ما كتبه القاضي النعمان بن محمد بن حيون المغربي سنجد خلافاً شديداً جداً بين ما قاله هؤلاء الدعاة الذين كانوا في فارس وبين العلماء الذين كانوا مع الأئمة في بلاد المغرب ، وإذا قارنا بين آراء هؤلاء الدعاة والعلماء جميعاً وبين ما كان يدعو إليه ابن حوشب الملقب بمنصور اليميني في بلاد اليميني ولا سيما فيما جاء في كتاب « الكشف » أو في « رسالة الرشد والهداية » سنجد اختلافاً آخر ، هذا كله يدل على أن عقائد الاسماعيلية تختلف من بلد إلى آخر ، ومن زمن إلى زمن . ونسوق مثالا آخر للتدليل على ما ذهبنا إليه ، فهناك بعض أقوال وردت في كتاب « المجالس والمسائرات » — الذي جمع فيه القاضي النعمان بن محمد ما سمعه أو شاهده عن الإمام المعز لدين الله الفاطمي — وهذه الأقوال إن دلت على شيء فإنما تدل على مقدار غضب الإمام المعز على بعض الدعاة الذين غالوا في الأئمة ، فقد جاءه أحد دعائه في جزيرة فارس ،

وسأل الداعي إمامه عن أمر من أمور الدين ، فلما أجابه المزمز
 لدين الله أظهر الداعي شيئاً من الدهشة بدت على وجهه ، فسأله
 المزمز عن سبب ما اعتراه ، أجابه الداعي بأن الاسماعيلية في فارس
 يقولون برأى آخر يخالف ما ذهب إليه الإمام نفسه ، وذكر
 الداعي ما عليه الاسماعيلية في جزيرة فارس ، فاستعظم المزمز لدين الله
 أن يقول أتباعه بهذه المقالة الشنيعة واستنكرها .

مثال آخر نسوقه لطرافته ، ذلك أن الدعاة في مصر في عهد
 المزمز لدين الله وعهد العزيز بن المزمز أذاعوا أن الأئمة يعرفون الغيب ،
 وأنهم يعرفون حركات النجوم والكواكب ومنها يستطيعون
 معرفة ما يريدون معرفته ، ثم إن عندهم كتاباً يسمى « بالجفر »
 ورثوه عن الإمام جعفر الصادق يستطيعون به معرفة هذه الغيبيات ،
 حتى إن أحد علمائهم وهو جعفر بن منصور البجلي وضع لهم كتاب
 « الفترات والقمرات » فيه ما يعلمون به الغيب ، أذاع الدعاة
 ذلك كله فانقسم الناس في مصر بين مصدق ومكذب ، ومنهم
 من سخر من معرفتهم الغيب هذه ، حتى إن العزيز بالله صعد المنبر
 يوم الجمعة ليخطب الناس على عادة الأئمة الفاطميين فوجد على المنبر
 ورقة كتب فيها :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة
 إن كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة

فهذا يدل على ما كان بين المجتمع المصرى فى ذلك الوقت من
تبلبل فى الفكر حول معرفة الأئمة للغيب ، واستشارتهم النجوم
لمعرفة المستقبل ، هذه البلبلة التى صورها الشاعر الأمير تميم
ابن المعز لدين الله الفاطمى نفسه فى إحدى قصائده وفيها يقول
مخاطباً الإمام العزير :

لما اختلفنا فى النجوم وعلمها وفى أنها بالنفع والضر قد تجرى
فمن مؤمن منا بها ومكذب ومن مكثرفيها الجدال ولا يدري
فعلمتنا تأويل ذلك كله بما فيه من سر وما فيه من جهر
وأخبرتنا أن النجم كاهن بما قال ، والكهان من شيعة الكفر
وإن جميع الكافرين مصيرهم إلى النار فى يوم القيامة والحشر
فجممتنا بعد اختلاف ومرية وألقتنا بعد التنافر والزجر
وأوضحت فيها قول حق مبرهن يجلى ظلام الشك من كل ذى فكر
فعدنا إلى أن الكواكب زينة وفيها رجوم للشياطين إذ تسرى
مسخرة مضطرة فى بروجها تسير بتدبير الإله على قدر
وأن جميع الغيب لله وحده تبارك من رب ومن صمد وتر
وما علمت منه الأئمة إنما روه عن المختار جدم الطهر
فناظم هذه الآيات ابن إمام من أئمة الاسماعيلية ، وأخو
إمام من أئمتهم ، وكادت تؤول إليه الإمامة لولا بعض أمور
أخذها عليه أبوه ، ومع ذلك فكان من الذين حازوا فى أحسن معرفة

الأئمة للغيب ، واستطلاع ذلك من حركات الكواكب والنجوم ،
 إلى أن جلاها له أخوه العزيز ، وأزعم أن رجوع الإمام العزيز
 عن ادعاء معرفة الغيب إنما ترجع إلى شخصية المصريين فلولا كثرة
 فكاهاتهم وتندرهم بالأئمة الاسماعيلية في هذه المقالة ما رجع العزيز
 عنها ونفاها عن الأئمة بالرغم مما كتبه الاسماعيلية في ذلك قبل
 استقرار الأئمة بمصر ، فالنكت المصرية اللاذعة التي أقول إنها
 سلاح من أسلحة مقاومتهم ، كانت من العوامل الفعالة في تغيير
 العقيدة الاسماعيلية وتطورها في مصر بحيث أصبحت عقائد
 الاسماعيلية في الدور الفاطمي المصري تختلف اختلافاً ملحوظاً
 عن عقائد الاسماعيلية في اليمن أو في فارس في نفس هذا العصر .
 ومادام الأمر كذلك في اختلاف العقيدة الاسماعيلية فالحديث
 عنها ليس سهلاً ميسوراً مثل الحديث عن العقائد الثابتة ، ومع
 ذلك كله فهناك بعض أصول اتفق عليها الاسماعيلية جميعاً منذ
 وجدت الاسماعيلية إلى الآن ولم يختلف فيها اثنان ، فمن هذه
 الأصول القول بضرورة وجود إمام معصوم منصوب عليه من
 نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، والنص على الإمام يكون
 من الإمام الذي سبقه بحيث تتسلسل الإمامة في الأعتاب ، أي
 أن ينص الأب على إمامة أحد أبنائه . هذا الأصل هو مبدأ وجود
 طائفة الاسماعيلية ، فكما ذكرنا من قبل كان هذا هو المبدأ الذي
 انشقت بسببه الاسماعيلية عن الشيعة عقب وفاة جعفر الصادق ،

واعتراف أكثر شيعته بإمامة ابنه موسى الكاظم ، فقد أبا بعضهم الاعتراف بإمامة موسى ، ونادوا بإمامة محمد بن إسماعيل لأنه في نظرهم صاحب النص . ومن الغريب أن أئمة الاسماعيلية أنفسهم لم يحترموا هذا الأصل الأساسي من أصول العقيدة ولم يتقيدوا به لافي المصور القديمة ولا في عصرنا الحديث ، فالمرزدين الله نص على ولاية ابنه عبد الله من بعده ، ولكن عبد الله توفي في حياة أبيه ، فنص العزيز مرة أخرى على ولاية ابنه العزيز ، يخالف بذلك الأساس الذي قامت عليه الطائفة الاسماعيلية في أن الإمامة لا تنتقل من أخ إلى أخ إنما تنتقل من أب إلى ابن ، وفي عصرنا الحديث نص أغا خان الثاني على إمامة ابنه شهاب الدين شاه ، ولكن شهاب الدين توفي في حياة أبيه فنص أغا خان الثاني على ابنه الذي تولى الإمامة وعرف بأغا خان الثالث ، وقد رأينا أغا خان الثالث يحرم ولديه على خان وصدر الدين خان من الإمامة وينص على حفيده « كريم » الذي لقب بأغا خان الرابع وهو الإمام الحالي للطائفة ، وهذا كله يدلنا على أن هذا الأصل من أصول المذهب الاسماعيلي أصبح نظرياً فقط بمجرد أن أصبح للاسماعيلية دولة سياسية وتدخلت التنظيمات السياسية في العقيدة فكيفتها حسب ما أملت الظروف السياسية .

وبالرغم من خروج الأئمة أنفسهم على مبدأ « النص على الإمام » لأمر اقتضتها الاعتبارات السياسية ، فالإمامة كانت

ولا تزال المحور الذي تدور عليه كل العقائد الاسماعيلية والفلسفة الاسماعيلية ، ذلك أنهم جعلوا ولاية الإمام الركن الأساسى لجميع أركان الدين ، فدعائم الدين عندهم منذ أول أمرهم وفى الدور الفاطمى بمصر وعند طائفة البهرة اليوم هى الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والولاية ، على أن الولاية هى أفضل هذه الدعائم ، فإن أطاع الإنسان الله تعالى ورسالة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وقام بأركان الدين كلها وعصى الإمام أو كذب به فهو آثم فى معصيته وغير مقبولة منه طاعة الله وطاعة الرسول ، ويقول فى ذلك القاضى النعمان بن محمد بن حيون المغربى فى كتابه « دعائم الإسلام » ، وهو أقوم كتاب فى فقه المذهب الاسماعيلي :
روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليه أنه سئل ما الإيمان وما الإسلام ، فقال : الإسلام الإقرار ، والإيمان الإقرار والمعرفة ، فمن عرفه الله نفسه ونبيه وإمامه ثم أقر بذلك فهو مؤمن » كما وضع الاسماعيلية كتباً كثيرة تدور كلها حول نقطة واحدة هى أن من أطاع الإمام فقد أطاع الله ، ومن عصى الإمام فقد عصى الله ، وأن بالإمام يعبد الله وبه يطاع الله وبه يعصى الله . فالولاية هى طاعة الإمام ومعرفته ، ومن الحق أن نقول إن هذه العقيدة فى ولاية الإمام ليست مقصورة على طائفة الاسماعيلية ، إنما يقول بها الشيعة الاثنى عشرية ، كما قال بها غلاة الشيعة ، فجميع فرق الشيعة على اختلاف آرائها وتباين عقائدها توجب ولاية الإمام ، وتفسر الآية القرآنية الشريفة « وأطيعوا الله وأطيعوا

الرسول وأولى الأمر منكم » بأن أولى الأمر هم الأئمة ، ولكل
فرقة من الفرق إمام يعملون إليه هذا التفسير ، وحاولت كل فرقة
أن تثبت الإمامة في أئمتها من دون أئمة الفرق الأخرى ، بل
كثيراً ما هاجمت فرقة قول الفرق الأخرى في ولاية الإمامة ،
مثل محاولة دعاة الاسماعيلية التهمك بفكرة دخول الإمام محمد بن
الحسن العسكري الإمام الثاني عشر للشيعة الموسوية (الاثني
عشرية) السرداب ، وأنه سيظل بهذا السرداب حتى يخرج
يوم القيامة ، كما طعن علماء الشيعة الاثني عشرية في أئمة الاسماعيلية
وطعن الاسماعيلية والاثنا عشرية في أئمة الغلاة ، ومها يكن من
شيء فإن عقيدة الإمامة أقدم من وجود الاسماعيلية ، وتشارك فيها
جميع فرق الشيعة ، ومن هنا جاءت الآراء الشيعية عن الإمامة
واحدة تقريباً ، فهم يفسرون بعض الآيات القرآنية بأن المقصود
بها الأئمة من أهل البيت ، فقوله تعالى « إنما أنت منذر ولكل
قوم هاد » وقوله تعالى « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن
الأرض يرثها عبادي الصالحون » فهذه الآيات وغيرها وردت
عن الأئمة من أهل البيت ، يشترك في هذا القول الاسماعيلية
والاثنا عشرية ، ولكن الاسماعيلية جعلوا للأئمة صفات لم تعرفها
فرق الشيعة الأخرى ، وهي صفات باطنية بحيث أصبح الأئمة عندهم
في مرتبة لا تمت إلى البشرية بصلة . بالرغم من إلحاح كتاب
الاسماعيلية في القول بأن الأئمة من البشر وأنهم خلقوا من الطين

ويتعرضون للأمراض والآفات والموت مثل غيرهم من بني آدم ،
ولكننا نجد في تأويلاتهم الباطنية أن الإمام هو « وجه الله » ،
« ويد الله » « وجب الله » وأنه هو الذي يحاسب الناس يوم
القيامة فيقسمهم بين الجنة والنار ، وأنه هو « الصراط المستقيم »
و « الذكر الحكيم » « والقرآن الكريم » إلى غير ذلك من
الصفات ، ولهم في ذلك كله أدلة يسوقونها لكل صفة من
الصفات ، فمثلا يقولون : إن الإنسان لا يعرف إلا بوجهه ، وما
كان الإمام هو الذي يدل العالم على معرفة الله ، فبه إذن يعرف الله ،
فهو وجه الله ، أى الذى به يعرف الله ؛ وأن اليد هى التى يبطش
بها الإنسان ويدافع بها عن نفسه ، والإمام هو الذى يدافع عن
دين الله ويبطش بأعداء الله فهو على هذه المثابة يد الله ، وهكذا
نقول عن بقية الصفات التى خلعوها على الإمام ، ولكن الاسماعيلية
الذين تحدثوا عن الإمام على هذا النحو ، وعن الله سبحانه وتعالى :
تراهم قد جردوا الله سبحانه وتعالى من كل صفة وزهوه التنزيه
كله ، فتوحيد الله عندهم هو بأن ينفى عنه سبحانه جميع ما يليق
بمبدعاته التى هى الأعيان الروحانية - ومخلوقاته - التى هى الصور
الجسمانية - من الأسماء والصفات ؛ وأن نفي المعرفة هو حقيقة
المعرفة وسلب الصفة هو نهاية الصفة ؛ فأسماء الله الحسنى التى
نسبها الله تعالى لنفسه فى القرآن الكريم لا تقال لله تعالى ، بل
جملوها للعقل الكلى الذى تحدث عنه الفلاسفة ، ووصفوا العقل

الكلية بكل صفات الكمال على نحو ما ذكره الفلاسفة الأقدمون تماماً ، وصبغوا هذه الآراء والأقوال القديمة بالصبغة الإسلامية ، فنسبوا أسماء الله الحسنى إلى العقل الكلية ، وأطلقوا على العقل الكلية أيضاً اسم « المبدع الأول » وأن هذا المبدع الأول أو العقل الكلية هو الذى رضى إليه الله تعالى « بالقلم » فى الآية القرآنية « نون والقلم وما يسطرون » وعلى هذا فالقلم أو المبدع الأول أو العقل الكلية هو الخالق المصور الواحد القهار ، الجبار ، العزيز ، المذل ، العلى القدير .. الخ ، وأنه هو الذى أبدع النفس الكلية أو المبدع الثانى الذى رضى إليه فى القرآن الكريم « باللوح المحفوظ » وجعلوا للنفس الكلية جميع الصفات التى للعقل الكلية إلا أن العقل الكلية كان أسبق فى الوجود وإلى توحيد الله وتنزيهه فبذلك كان العقل الكلية أسبق من النفس الكلية وأفضل فسمى « بالسابق » وسميت النفس الكلية « بالتالى » وبواسطة العقل الكلية والنفس الكلية وجدت جميع المبدعات الروحانية والمخلوقات الجسمانية بل كل ما نشاهده فى هذه الدنيا من جماد ونبات وحيوان وإنسان ، وما فى السموات من نجوم وكواكب ، فالخالق عند الإسماعيلية إذن هو العقل الكلية والنفس الكلية وبمعنى آخر إن ما يقوله المسلمون عن الله سبحانه وتعالى خله الإسماعيلية على العقل الكلية فهو الإله عند الإسماعيلية ، وإذا ذكر الله عند الإسماعيلية فالمقصود هو العقل الكلية ، فإذا

عرفنا ذلك كله استطعنا أن نقول إنهم لم يأتوا بهذه الآراء
 الفلسفية عبثاً ، بل جاءوا بها لإسباغ صفة خاصة على الإمام الذي
 قالوا إنه من البشر ، ذلك أنهم ذهبوا إلى أن العقل الكلى فى
 العالم العلوى يقابله الإمام فى العالم الجسمانى ، ومعنى هذا عندهم أن
 كل الأسماء والصفات التى خلعت على العقل الكلى هى أيضاً
 صفات وأسماء للإمام لأن الإمام مَثَلٌ للعقل الكلى ، فأسماء الله
 الحسنى التى قالوا إنها أسماء العقل الكلى هى أسماء للإمام ، فالإمام
 إذن هو الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، المنتقم الجبار .. الخ
 من الأسماء ، ولذلك قال ابن هانى الأندلسى الشاعر فى مدح
 المعز لدين الله الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
 وقال الشاعر أبو الحسن الأخفش فى مدح الأمر بأحكام الله :
 بشر فى العين إلا أنه عن طريق العقل نور وهدى
 جَلَّ أن تدركه أعيننا وتعالى أن نراه جسداً
 تدرك الأفكار فيه بانياً كاد من إجلاله أن يعبدوا
 ويقول شاعر آخر :

هذا أمير المؤمنين بمجلس أبصرت فيه الوحى والتنزيلا
 وإذا تمثل راكباً فى موكب عانيت تحت ركابه جبريلا
 ويقول الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمى فى مدح أخيه
 المعز بالله :

ما أنت دون ملوك العالمين سوى روح من المقدس في جسم من البشر
نور لطيف تنأهى منك جوهره تنأهياً جاز حد الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التى سبقت خلق الهيولى وبسط الأرض والمدر
وهكذا أخذ الشعراء يمدجون أعتهم بهذه الصفات الباطنية
التي لم يقل بها سواهم ، ذلك بالرغم من قولهم بأن الأئمة مخلوقون
من الطين وفي ذلك يقول الشاعر المؤيد بالدين داعى الدعاة :

قد خلقت من طينة وخلقنا نحن منها ، لكن بدا ترتيب
ولكن هذا الداعى الشاعر عاد فقال :

نعم قد أفاضها في البرايا فتخت عن شكرها أنعام
هم نهايات كل من برأ الله وذايات خلقه والسلام
فإليهم تنمى النفوس إذ راحت الأرض تنمى الأجسام
ويجب أن نلاحظ أن هذه الصفات التي سبغوها على الأئمة

والتي جعلته مثلاً للعقل الكلى ، لم يستطيعوا أن يصرحوا بها
للعامّة أو للمبتدئين من المستجيبين ، بل لم يكن يعرفها إلا من
استمع إلى داعى الدعاة نفسه في المجالس التي كان يعقدها للخاصة
فقط ، أما أمام جمهور الناس ولا سيما في الدور الفاطمية بمصر
فلم يكن الدعاة بقادرين على الإبانة عن هذه العقائد أو الإشارة
إليها ، وإلا كان ينالهم المصيرين ماناله دعاة تأليه الحاكم بأمر الله ،
ولذلك عمد الدعاة الاسماعيلية في مصر إلى إخفاء أكثر عقائدهم
السرية عن الناس ولم يظهروا منها إلا ما كان هيناً رقيقاً بالشعب ،

وما كان لا يخالف العقائد التي كانت سائدة في مصر ، وهي القرية من مذهب الشافعي ومذهب مالك ، حتى إننا إذا درسنا كتب الفقه الاسماعيلي التي وضعت في الدور الفاطمي مثل كتاب « دعائم الإسلام » أو كتاب « الاقتصار » للقاضي النعمان نجد أنها قريبة كل القرب من مذهب الشافعي ومالك إلا ما جاء في هذه الكتب عن ولاية الإمام ووجوب طاعته ، كان ذلك كله أمام جمهرة الناس ، أما بين الخاصة من الدعاة وكبار رجال الدولة ومن يأكلون على كل الموائد ، فكان لهم أن يستمعوا إلى هذه الآراء السرية التي كان يلقيها داعي الدعاة ، وفيها مثل هذه العقائد التي تجعل من الأئمة شبه آلهة ، وهذه المجالس التي كان يلقيها داعي الدعاة هي التي تضم العبادة العلمية أي علم الباطن ، فقد ذهب الاسماعيلية إلى أن لكل شيء ظاهر محسوس وأوئيل باطنياً لا يعرفه إلا الراسخون في العلم وهم الأئمة ، وهؤلاء الأئمة يودعون هذا العلم الباطن لكبار الدعاة بقدر مخصوص ، بل ذهب الاسماعيلية إلى أبعد من ذلك فقالوا إن التأويل الباطن من عند الله خص به علي بن أبي طالب ، فكما أن الرسول صلى الله عليه وسلم خص بالتنزيل فكذلك علي بن أبي طالب فقد خص بالتأويل ، ومن ذلك المشاركة بين النبي وعلي ، فقالوا إذن بوجوب التأويل الباطن وضرورته واستدلوا على ذلك بقصة نبي الله موسى عليه السلام مع الرجل الصالح المذكورة في سورة الكهف ،

وكيف أن موسى عليه السلام وهو نبي مرسل من أولى العزم لم يمنحه الله علم الباطن بينما منح هذا العلم إلى الرجل الصالح وهو ليس بنبي مرسل وليس من أولى العزم ، وهكذا كان التأويل الباطن إلى علي بن أبي طالب وهذا أورثه الأئمة من أعقابه بأمر من الله ، وعلى ذلك فالأئمة هم الذين يدلون الناس على أسرار الدين وليس لأحد غيرهم هذا الحق الذي جاءهم بأمر الله تعالى ، ولكن ليس لهم أن يظلموا أحداً على أسرار هذا الدين إلا لمن يستحق ذلك فقط ، ومن ثم ستر الاسماعيلية علوم الباطن إلا عن كبار الدعاة فقط ، وسترها هذه العلوم وما كتبه كبار الدعاة عن العالم كله وظلت محجوبة عن العالم هذه القرون المديدة إلى أن قدر لنا الحصول على بعضها وبذلك استطعنا الحديث عنهم ، وقد نظم الداعي المؤيد في الدين عقيدة التأويل الباطن ووجوبه وضرورة ستره إلا لمن كان يستحقه بقوله :

وإن أجزنا ظاهر الكلام	في ذلك أسلمناه للخصام
ففي اختلافات القرآن كثره	من كل قول مع كل زمرة
يا قوم سر الملكوت هذا	يجعل أصنامكم جذاذا
سر له صاحب موسى الخضرا	قال : متى لن تستطيع صبيرا
وقال موسى : سوف ألقى صبيرا	فلم يكن إذ ذاك إلا قاصرا
تدبروا القصة ماذا يما	من قصها إن لم تكونوا نوما
لعلكم أن تحسبوها سمرا	إذن أسأتم للنفوس النظرا

ورب معنى ضمه كلام كمثل نور ضمه ظلام
 باق بقاء الحب في السنابل في معقل من أحرز المعامل
 وإنما باب المعاني مقفل وأكثر الأنام عنها غفل
 مفتاحه أضحى بأيدي خزنه بهم إلهى علمه قد خزنه
 كما يلوذ الخلق طرا بهم خصوا بهذا النور من ربهم
 فنظرية التأويل الباطن نظرية دينية فلسفية تتلخص كما قلنا
 في أن الله سبحانه وتعالى جعل كل معاني الدين في المخلوقات التي
 تحيط بالإنسان ، فيجب إذن أن يستدل بما في الطبيعة وبما على
 وجه الأرض على فهم حقيقة الدين ، وجعلوا المخلوقات قسمين :
 قسما ظاهرا للعيان ، وقسما باطنا خفيا ، فالظاهر يدل على الباطن ،
 فجسم الإنسان مثلا ظاهر وباطنه النفس وهكذا ، فما ظهر من
 أمور الدين من العبادة العملية ، وما جاء في ظاهر آيات القرآن
 هي معاني يعرفها العامة وينطق بها علماء أهل السنة وفرق الشيعة
 الأخرى ، ولكن لسكل فريضة من فرائض الدين تأويلا باطنا
 لا يعلمه إلا الأئمة وكبار دعائه ، وبالرغم من أنهم قالوا إن التأويل
 من عند الله ، وأنه خص بها علي بن أبي طالب والأئمة من نسله
 تراهم مرة أخرى يقولون إن التأويل من خصائص حجة الإمام
 أو داعي دعائه ، وقد رأينا كيف كان كبار الدعاة مختلفين في

آرائهم ، ومن ثم اختلف التأويل الباطن عندهم باختلاف شخصية الداعى الذى إليه التأويل ، وباختلاف موطن الداعى وزمن وجوده ، فإذا قرأنا تأويلات الداعى منصور اليمين قبل ظهور الدولة الفاطمية بالمغرب ، نجدها تميل إلى الغلو وهى أشبه بما كان يقوله أصحاب فرق الغلاة مثل الخطابية والسلمانية وغيرهما وتأويلات دعاة فارس بعد قيام الدولة الاسماعيلية الفاطمية بالمغرب تختلف عن تأويلات الدعاة الذين كانوا بالقرب من الأئمة بالمغرب ، ففيها التأليه الصريح للأئمة وفيها طرح الفرائض الدينية ، فتأويل الصلاة عندهم هو الاتجاه القلبي للإمام ، وتأويل الصوم هو عدم إفشاء أسرار الدعوة ، وتأويل الحج هو زيارة الإمام ، وهكذا ينتهى بهم التأويل فى فارس فى هذا الوقت إلى طرح كل أركان الدين ، بخلاف ما كان عليه الأمر فى بلاد المغرب إذ لم يصرحوا بهذه الآراء إلا فى كتبهم السرية الخاصة ، أما التأويل الباطن فى العصر الفاطمى فى مصر فقد خفف هذا الغلو إلى درجة أن الدعاة اضطروا إلى استنكاره واستبشاعه أمام الشعب ، فقالوا إن تأويل الصلاة هى دعوة الحق ، وأن الصيام هو فى الباطن عدم الحديث أسوة بما جاء فى القرآن الكريم فى سورة مريم « إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً » وهكذا اضطرت الدعاة والمؤولون فى العصر الفاطمى فى مصر إلى التظاهر بتخفيف

تأويلاتهم التي كانت قبل هذا العصر ، بل اضطروا إلى تغيير التأويل الذي ظهر في بلاد المغرب قبل استقرارهم في مصر ، فثلاً في تأويل قوله تعالى « والفجر وليال عشر والشفع والوتر » قال الداعي بالمغرب إن الفجر هو علي بن أبي طالب وكل إمام بعده ، وأن الشفع والوتر هما الحسن والحسين ولدا علي بن أبي طالب ، ولكن الداعي في مصر أوّل هذه الآية إلى أن « الفجر » هو المهدي المنتظر لأنه يظهر بعد انتشار الضلال ، كما أن الفجر يأتي بعد شدة الظلام ، فبالرغم من أن تأويل الداعي بالمغرب يتفق في هدفه الأخير مع تأويل الداعي بمصر ، فإن هذا الأخير كان أكثر منه حذراً في التصريح بأن الفجر هو الإمام ، مع أن الإمام في عصره هو مهدي عصره ؛ معنى هذا كله أن التأويل في مصر الفاطمية كان أكثر اعتدالاً مما كان عليه التأويل في غير مصر ، وبعد انتقال الدعوة من مصر إلى اليمن وأصبحت تعرف بالدعوة الاسماعيلية الطيبية ، عادت التأويلات الباطنة مرة أخرى إلى الغلو ، مع أن دعاة اليمن أخذوا أكثر تأويلاتهم عن دعاة مصر ، وبسبب دخول الأئمة في الستر ، وعدم وجود دولة للطائفة ، عاد الاسماعيلية إلى التقية والسرية بحيث لا يسمح إلا لكبار الدعاة فقط بمعرفة أسرار التأويل ، وظل الأمر على ذلك إلى الآن عند طائفة البهرة بفرعها الداودي والسلیماني .

أما الاسماعيلية الزارية (الاسماعيلية الشرقية في فارس) فقد
اعتنقوا العمل بالتأويل الباطن من دون الظاهر، وتركوا الظاهر
جملة وتفصيلاً. والذي يظهر لي من التأويل الباطن في كل أدوار
الاسماعيلية أنه وضع لخدمة غرض واحد فقط وهو إغداق صفات
التمجيد والتفخيم على الأئمة وعلى الدعوة الاسماعيلية، بحيث سهل
علينا أن نؤول على نحو ما كانوا يؤولون، فكل فضيلة وردت
في القرآن الكريم أو في الأحاديث النبوية تؤول على أنها للإمام
لأنهم قالوا إن القرآن الكريم نفسه تأويله الإمام، والأهلة
هم الأئمة، والشمس الإمام، والقمر الإمام، والسماء هي الدعوة،
والعرش الدعوة، والأرض الدعوة، والجبال هم الدعاة، والملائكة
هم الدعاة، والطاغوت والأصنام والشياطين هم أعداء الأئمة،
وهكذا كان تأويلهم الباطن مما يجعلنا نستطيع أن نسايرهم في
تأويلهم ونقيس على ما قالوه.

ولكن تأويلهم الباطن لقصص الأنبياء لا يمكن أن يقول
بها إلا من قرأها في كتبهم ولا يمكن أن يقيس على ما قالوه، فهم
يذهبون إلى أن التفسيرات التي ذكرها المفسرون جعلوا الأنبياء
مذنبين خاطئين بينما الأنبياء معصومون عن كل نقيصة وهي عصمة
ذاتية، لذلك يستنكر الاسماعيلية تفسير المفسرين، فثلاً ما قاله
المفسرون عن قصة آدم وخروجه من الجنة بسبب ثمرة أكلها
لم يقبله الاسماعيلية، فقد قال أحد دعائهم في الرد على قول هؤلاء

المفسرين : « جاء في التفسير أن الله أسكن آدم الجنة وأباح له ثمراتها غير الشجرة المستثناة منها ، قالوا هي الخنطة ، والخنطة من حيز الزروع لا من جملة الأشجار ، وقالوا هي التين أيضاً ، وهذا الكلام خارج عن المعتاد أن يكون صفوة الله سبحانه الذي يصنطفيه ويسجد له ملائكته ويسبح له جنته يشح عليه بنبته من نباتها أو من شجرة من شجراتها ، فلمن تراه كان يدخرها لأعز منه إنساناً وأعلى من رتبته رتبة ومن مكانه مكاناً ، وبخل المرء بالشئ يقتضيه حاجة إلى الاستئثار به أو إعداده إياه لمن يكرم عليه ، ولا حاجة بالله إلى طعامه يطعمه فيكون قد ادخر ذلك لنفسه ، وإن كان جميع ذلك ممتنعاً من الله سبحانه مستحيلاً ، وواجب أن يطلب العاقل سبيلاً ينفي عن الله سبحانه في هذه المضايقة ذمهم التهم ، وعن صفوته آدم مذمة الشره المفرط والنهم » . أما ما قاله علماء الاسماعيلية في تأويلهم الباطن فهو أن آدم لم يكن أول الخلق كما تقول جميع الأديان السماوية ، إنما كان قبله عالم عاش بينهم آدم ، وأن آدم هذا كان له حجة هو الذي رضى إليه في القرآن الكريم بحواء ، أى أن حواء عندهم لم تكن أنثى وليست بزوجة آدم ، إنما كانت أقرب الدعاة إلى آدم ، وأن آدم وحواء كانا ينعمان في دعوة الإمام الذي كان قبل آدم وهي دعوة إسماعيلية وهي التي عبر عنها الله بالجنة ، فتطلع آدم إلى مرتبة دينية أعلا من مرتبته ، فأخرجه الإمام من الدعوة ،

ولكن آدم عاد إليها بعد أن تاب الإمام عليه ؛ هذا هو ملخص تأويل قصة آدم عند بعض دعاة الاسماعيلية ، وقد ذكرنا من قبل اختلاف الدعاة في التأويل ، فهناك تأويلات أخرى لا حاجة إلى ذكرها هنا ، وكذلك قولهم في تفسير ما جاء عن إبراهيم الخليل عليه السلام في القرآن الكريم « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون » فالكواكب هم الدعاة الذين أخذ عنهم إبراهيم علوم الدعوة الاسماعيلية حتى انتهى ما عندهم فاتجه إلى الأخذ عن حجة النبي الذي كان قبله ، فلما أتى على جميع ما عنده من العلوم طلب العلم عن النبي نفسه حتى هبأه النبي إلى أن يحل محله بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى .

وعلى هذا النحو يسير التأويل الباطن الذي يخالف ما عليه جمهور المفسرين والعلماء ، وإذا بحثنا عن السبب الذي من أجله اتجهوا في تأويل قصص الأنبياء إلى هذا الاتجاه ، نجد أن من عقائدهم ما أطلقت عليه « نظرية الدور » وتتلخص هذه النظرية في أن الحياة تتجدد وهي مقسمة إلى فترات ست وعلى رأس كل فترة نبي ، وبين كل نبي وآخر أئمة يخلفون النبي في شئون دينهم ، وأن ما يحدث في فترة من هذه الفترات يحدث ما يشبه تماماً في

الفترات الأخرى ، و يروى في ذلك الحديث النبوى « لتسلكن سبل من سبقكم حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل حتى لو دخلوا خشم صب لدخلتموه » فما حدث في عصر آدم عليه السلام هو نفس ما حدث في عصر إبراهيم وفي عصر نوح وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، ولذلك كانت صفات هؤلاء الأنبياء واحدة بحيث تستطيع أن تقول مثلاً إن موسى هو آدم عصره وهو نوح عصره وعيسى عصره . . الخ ، وأن الأئمة الذين خلفوا الأنبياء في مرتبة واحدة أيضاً وصفات واحدة ، ونتيجة ذلك أن إمام العصر وهو وارث الأنبياء جميعاً وكل من سبقه من الأئمة فهو صاحب كل صفات الأنبياء والأئمة السابقين ، ولذلك كان يوصف الإمام الإسماعيلى فى الدور الفاطمى بأنه خليل الله وكليم الله وأنه المسيح الذى يحيى الموتى إلى غير ذلك من خصائص الأنبياء ، وبناء على ذلك نستطيع أن نفهم قول شعرائهم يخاطب إمامه صاحب القاهرة :

وأهلا بأنوارها الزاهره	سلام على العترة الطاهرة
أبى الخلق باديه والحاضره	سلام بديا على آدم
أديرت على من بنى الدائره	سلام على من بطوفانه
غداة أحفت به الناره	سلام على من أناه السلام
عصاة فراعنة جائرة	سلام على قاهر بالمصا
ببعثه شرفت ناصره	سلام على الروح عيسى الذى

سلام على المصطفى أحمد ولى الشفاعة فى الآخرة

سلام على المرتضى حيدر وأبنائه الأئمة الزاهرة

سلام عليك فحصولهم لديك أيا صاحب القاهره

ويقوم شاعر آخر فى مدح إمامه :

يا مسيحا يكلم الناس طفلا ضل فى شأنه أخو اللب لب

لست دون المسيح سماه ربا أهل شرك ولا نسميك ربا

فهكذا كان رأيهم فى قصص الأنبياء فقد أولوا ما ورد فى القرآن الكريم عن الأنبياء تأويلا يتفق مع هدفهم فى إسباغ فضائل خاصة على الأئمة ، بل نرى فى كثير من كتبهم السرية أن الإمام قائم الزمان من الأنبياء أولى العزم ولكننا وقد عرفنا شيئا عن عقيدة الاسماعيلية فى الإمامة ، وما يهدف إليه علم الباطن ، وجب أن نفرق بين نوعين من الإمامة عندهم ، فهناك إمام « مستودع » و « إمام مستقر » ، ولتقريب الفرق بينهما إلى الأذهان ، نفرض أن أحد الأئمة توفى وكان ولى عهده طفلا صغيراً أو فى سن لا يستطيع معه أن يباشر سلطته الدينية والزمنية ، عندئذ يختار أقرب أقاربه إليه ليتولى السلطان ويلقب بالإمام المستودع بدلا من الإمام الحقيق الصغير حتى يشب هذا ويتسلم ميراثه منه فيصبح صاحب مرتبتي « الاستيداع والاستقرار » والإمام المستودع لا يتمتع بسلطان روحى ، وليس له أن ينقل

مرتبة الإمامة إلى أحد أبنائه ، بل يحتفظ بمرتبة الإمامة لصاحبها الشرعى ويحكم باسم الإمام الشرعى ، وهو مع ذلك كله معصوم عصمة مكتسبة من مرتبته ، أما الإمام المستقر فهو صاحب النص الشرعى وصاحب السلطان الدينى وعصمته ذاتية ، وهو صاحب الصفات التى سبق الحديث عنها . وعندما كان الأئمة فى دور الستر ، اتخذوا أئمة مستودعين تعمية لأعدائهم وسترا على صاحب الحق الشرعى فى الإمامة ، وربما كان كثرة الأئمة المستودعين فى دور الستر من أسباب عدم الوصول إلى معرفة حقيقة نسب الفاطميين ، وسبب هذا الاضطراب بين المؤرخين فى أسماء الأئمة حتى وقتنا هذا حتى إن الأستاذ برنارد لويس الأستاذ بجامعة لندن يذهب إلى أن عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية بالمغرب كان إماماً مستودعاً وأن القائم بأمر الله الذى وليه فى الحكم هو الإمام المستقر وعلى ذلك فالقائم ليس ابن المهدي ، ولكن هذه كلها افتراضات لا يمكن أن نصل فيها إلى نتيجة حاسمة .

ويذهب أكثر الذين تحدثوا عن عقائد الاسماعيلية من القدماء والمحدثين بأن الاسماعيلية يقولون بالتناسخ ، أى بانتقال الروح بعد الموت إلى إنسان آخر أو إلى حيوان أو نبات على نحو ما نراه فى العقيدة البوذية مثلاً ، ولكن بعد أن وصلتنا كتب الدعوة الاسماعيلية السرية نقول إن الاسماعيلية لا يدينون بالتناسخ بل ذهبوا إلى أن الإنسان بعد موته يستحيل عنصره الترابى

(جسمه) إلى ما يجانسه من تراب ، وينتقل عنصره الروحاني (الروح) إلى الملائ الأعلى ، فإن كان الإنسان في حياته مؤمناً بالإمام فهي تحشر في زمرة الصالحين وتصبح ملكاً مدبراً ، وإن كان شريراً عاصياً لإمامه حشرت مع الأبالسة والشياطين وهم أعداء الإمام ، وهذا هو عندهم تأويل الثواب والعقاب ، فالجنة عندهم هي طاعة الإمام والنار هي الخروج عن طاعة الإمام ، وكثيراً ما أرى في كتبهم اصطلاح « المسخ » بمعنى أنه خرج عن الدعوة الاسماعيليه بعد أن كان من أبنائها ، بينما المصطلح الفلسفي للمسخ هو انتقال الروح إلى حيوان .

كذلك ذهب القدماء إلى القول بأن الاسماعيليه دانوا بالحلول بمعنى حلول اللاهوت في الأئمة ، والحقيقة أن الاسماعيليه لم يذهبوا إلى هذه العقيدة بصريح العبارة ، إنما لجأوا إلى القول بأن الإمام خلق من نور الله أو أن نور الله حل به ، وقد انتشرت فكرة الحلول بين الاسماعيليه في فارس في دور الستر ثم خفت بعض الشيء في الدور الفاطمي ثم عادت إلى الظهور بوضوح وصراحة في دور الاسماعيليه النزاريه ، أما عند البهرة فهي موجودة في شيء من الغموض أو قل في شيء من التلاعب اللفظي مثل ما كانت في الدور الفاطمي ، ونحن نعلم أن طائفة الدرود كانوا من الاسماعيليه ثم انشقوا عنهم بسبب تصريحهم بأن الإله حل في الحاكم

بأمر الله فأصبح هو المعبود ، كما قالوا بالتناسخ وغيره من الآراء
التي أبعدهم عن معتقدات الاسماعيليه .

ويطلق القدماء اسم « السبعية » على الاسماعيليه للقول بأن
العالم بنى على أصول سباعية ، وقد رد الداعى المؤيد فى الدين على
ذلك فى كتاب « المجالس المؤيدية » بقوله : « فأما موضوع اسم
الرفض والتسبيح من جهتهم عليكم فهو ظلم ، . . وأما التسبيح
فهو نعت أصل من جملة أصول كثيرة تركوا وسمك بها واقتصروا
على واحد من جملتها وذلك أن الديانة مبناها توحيد الواحد الأحد
الصمد سبحانه ، والطريق إلى معرفة التوحيد معرفة ازدواج
الأشياء ، قال الله تعالى « سبحانه الذى خلق الأزواج كلها » .
وقال رسول الله (ص) « خلق الله الأشياء مزدوجة ليكون
دلالة على وحدانيته » . وهذا أصل تاه فيه الثنوية ، والثلاثة أصل
تاه فيه النصرى ، والأربعة التى هى مقابل الأركان الأربعة أصل ،
والخمس التى هى بمقابلة الحواس الخمس أصل ، والسته التى هى
بمقابلة الأيام الستة فيها خلق الله السموات والأرض أصل ،
والسبعة أصل ، والثمانية التى هى بمقابلة أبواب الجنة الثمانية وحمله
العرش أصل ، والتسعة التى هى بمقابلة الآيات التسع أصل ،
والعشرة التى هى بمقابلة ليال عشر وغير ذلك أصل ، وأحد عشر
التي هى بمقابلة تكبيرات الصلاة كل ركعتين أصل ، واثنى عشرة
التي هى بمقابلة اثنى عشر تقيماً أصل ، وسبع عشر التى هى بمقابلة

الصلاة أصل ، وتسعة عشر التي هي بمقابلة خزانة النار أصل ،
 والأصول غير ذلك كثيرة ، فلا وجه للتخصيص بالسبعة ، هكذا
 رد الداعي الاسماعيلي على من رماهم بالتسبيع ، والحقيقة أن
 الاسماعيلية أخذوا ما قاله الفلاسفة الفيشاغوريون القدماء الذين
 جعلوا كل الأعداد أصولاً لعقيدتهم ، وصبغوا آراء الفيشاغوريين
 بالصبغة الإسلامية على حسب العقيدة الاسماعيلية ، ومن ثم ظهرت
 عندهم عقائدهم في الأعداد وما يقابلها من أصول دينية دون أن
 يقفوا على عدد بعينه ، فالواحد هو العقل الكلي أو القلم ، والاثنان
 هما العقل الكلي والنفس الكلية أي القلم والروح ، والثلاثة هم
 محمد وعلي وفاطمة ، والخمسة هم القلم واللوح وميكائيل واسرافيل
 وجبريل ، وهم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين ، وهم الإمام
 والحجة والداعي والمأذون والمكاسر ، وهكذا جعلوا لكل عدد
 ما يقابله من الدين . وكانوا متأثرين في ذلك بالفلسفة الفيشاغورية .
 والذين يدرسون عقائد الاسماعيلية يستطيعون أن يدركوا أن هذه
 العقائد مزيج عجيب من مجموعة المذاهب والديانات والآراء الفلسفية
 القديمة التي عرفت وانتشرت في الأقطار الإسلامية منذ زمن بعيد
 بتأثير امتزاج المسلمين بغيرهم من أصحاب الديانات المختلفة والآراء
 المتباينة ، وأن الاسماعيلية أخذوا هذه الآراء والمعتقدات
 وأخضعوها لفكرتهم عن الإمامة بعد أن صبغوها بالصبغة
 الإسلامية ، حتى إن الباحث يستطيع أن يتعقب أكثر عقائد

الاسماعيلية ويردها إلى أصولها القديمة ، فثلا قال قدماء المصريين بانتقال روح فرعون بعد موته إلى العالم العلوى فتصبح من الآلهة المؤثرة في العالم وبهذه المقالة ذهب الاسماعيلية بأن روح الإمام تصبح بعد وفاته ملكاً أو عقلاً من العقول الروحانية المدبرة للعالم الكون الفساد ، وأخذ الاسماعيلية عن أفلاطون نظرية المثل التي تقول بأن ما في العالم الحسى أشباح لمثل في العالم العلوى فقال الاسماعيلية إن ما في عالم الدين مُثل لمثولات في العالم الروحاني ، وأخذ الاسماعيلية رأى الأفلاطونية الحديثة في الابداع وظهور النفس الكلية عن العقل الكلى ، وأن العالم خلق بواسطة اللوجوس (الكلمة) فجاء الاسماعيلية وقالوا إن الكلمة التي خلق عنها العالم هي كلمة « كُنْ » التي وردت في الآية القرآنية « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » وأن كلمة كن مكونة من الكاف والنون ، فالكاف رمز على القلم أو العقل الكلى ، والنون رمز على اللوح أى النفس الكلية ، وبهذا فسر الاسماعيلية قوله تعالى « نون والقلم » أن الله يقسم بأعز مخلوقين عنده وهما اللوح والقلم ، وفيها يقول الشاعر :

بديع شكر ووسيع حمد	لمبدع الكاف الرفيع المجد
أكله سبحانه إذ أبدعه	مبتدئاً واخترع النون معه
ثم أقام منهما ما قد علا	لحفة وما لتقل سفلا
من فلك طول الزمان دائر	ومن شهاب طالع وغائر

والأرض لما أصبحت مهادا ومن جبال رسخت أو تادا
 وحيوان باختلاف الجنس كاملة فيها أداء الحس
 ومن أناس سخروها عنوه إذا أصبحوا منها العمرى الصفوه
 بألسن عن أنفس مترجمه كاشفة عن عشواء كل مظلمه
 واقتبسوا من الأفلاطونية الحديثة كل فلسفة القيوضات
 ورتبها بحيث إذا قرأنا كتب الحقيقة الاسماعيلية نجد أنفسنا أمام
 الفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

ولعل أكثر الآراء أثراً في الاسماعيلية هذه الآراء التي في
 كتب الآباء المسيحيين ، ففي كتب الاسماعيلية التي ألفت قبل
 دور الاسماعيلية الفاطمية في مصر ، أى في الدور الغربي آراء هي
 من صميم العقيدة المسيحية ، بل صرح جعفر بن منصور اليميني في
 كتابيه « أسرار النطقاء » و « سرائر النطقاء » بأن ترتيب الدعاة
 هو نفس ترتيب رجال الكنيسة المسيحية ، واعتراف دعاة
 الاسماعيلية بصلب المسيح هو تأثير قوى من تعاليم المسيحية ،
 ونحن نعلم أن القديس أوجستين كان من أوائل الذين أولوا
 الكتاب المقدس تأويلاً باطنياً ، فجاء الاسماعيلية وأولوا الكتب
 المقدسة بما فيها القرآن الكريم ، وفي الدور الفاطمي بعصر نجد
 الداعي أحمد حميد الدين الكرمانى مثلاً يستشهد بآيات من التوراة
 والإنجيل ويؤولها تأويلاً يتفق مع عقيدته في الإمامة ، بل يجعل
 آيات التوراة تشير إلى إمامه . كل ذلك بتأثير المسيحية على العقيدة

الاسماعيلية تأثيراً جمل مسيحي مصر يقولون إن المعز لدين الله
اعتنق المسيحية وهو قول لا أساس له من التاريخ .

فالمقائد الاسماعيلية إذن مجموعة آراء مختلفة تطورت من بلد
إلى آخر ومن زمن إلى زمن بحيث يصعب دراستها ومعرفتها ،
فكانوا يقولون بآراء في بلد ويقولون بغيرها في بلد آخر ،
أو يأتون بنقيضها بعد فترة من الزمن ، وقد استفاد الاسماعيلية
من هذا التطور وذلك الاختلاف فإذا جادلت أحدهم في مسألة من
المسائل فهو ينكر نسبة هذه المسألة إلى الاسماعيلية ، فإذا جابهته
بها في كتاب من كتبهم فهو إما ينكر نسبة الكتاب إلى
الاسماعيلية أو أخرج لك كتاباً آخر من كتبهم به ما يناقض
ما في الكتاب الأول ، وأذكر أني كنت أناقش أحد علماء
البهرة في مسألة دقيقة : وهي قولهم بأن محمد بن اسماعيل بن جعفر
الصادق هو الناطق السابع (أي النبي السابع) إذاً به ينكر
هذا القول إنكاراً تاماً ، فلما ذكرت له أسماء كتبهم التي بها هذا
القول ، ذهب إلى أن جميع هذه الكتب وقع بها تحريف من النسخ ،
وأن النسخ الصحيحة من هذه الكتب في خزانة الدعوة بالهند ،
ثم بعد عدة سنوات قدر لي أن ألتقي به في الهند ، بل في البلد
الذي به خزانة كتب دعوتهم ، فطلبت منه أن يطلعني على النسخ
الصحيحة التي يحتفظون بها فوعدني ، وانتظرت أن يفي بوعده ،

ولسكنى عدت من الهند دون أن أقبله مرة أخرى .

(وبعد) فبالرغم من الأبحاث العديدة التي ظهرت بمختلف اللغات في الربع قرن الأخير عن الاسماعيلية فإن هناك عدة نواحي لا تزال غامضة ، ومجال الحديث عن الاسماعيلية ذو سعة لتشعب نواحيها واختلاف آرائها ، ثم إن أكثر كتب الدعاة لا تزال مجهولة أو مستورة في خزائن الطائفة ، فلا تزال دراسة الاسماعيلية تحبو وتحتاج إلى جهود ومثابرة حتى تظهر بجلاء ، وتتضح معالم هذه الطائفة التي كان لها أثرها القوي في كل بلد ملكوه ، ونحن في مصر الآن بالرغم من عدم وجود مصري واحد على مذهب الاسماعيلية لا تزال متأثرين بما كان عليه القوم في العصر الفاطمي ، فنحن لا تزال نقدر أهل البيت ، ولا تزال بنى الأضرحة والقباب لأهل البيت ، ولا تزال نقيم الموالد لهم ، بل الخطب المنبرية هي صورة من التي كانت في العصر الفاطمي .

ولا يزال أوشاب الناس في مصر يهجون بعضهم بعضاً بقولهم « يا عمر » ، وهذا أثر من آثار العصر الفاطمي إذ كانوا يسبون الصحابة ، ولا يزال الطبقة المتخلفة من المصريين يزعمون أنهم يرون علياً بن أبي طالب يحيمهم وهم في طريقهم إلى الحج ، إلى غير ذلك من معتقدات العوام التي هي من تراث العصر

الفاطمى الاسماعيلى لم يستطع الزمن أن يمحوها من عقول بعض
 المصريين ، فإذا كان سلاطين العصر الأيوبي والعصر المملوكى
 قد أكثروا من إنشاء المدارس لمقاومة الآراء الاسماعيلية
 فى مصر ، واتخذوا من العلم سلاحاً لمحاربة هذه الآراء ، فجدير بنا
 أن ندرس الآراء الاسماعيلية على حقيقتها من كتبهم حتى يتبين
 لنا حقيقتهم ؟

المراجع الهامة

لما كانت طائفة الاسماعيلية فرقة من الفرق الدينية ، لها عقائدها الخاصة ، كان على الباحث أن يتجه في دراسته عن الاسماعيلية إلى الكتب التي وضعها علماء هذه الطائفة ، وهنا أهم هذه الكتب مرتبة حسب تاريخ المؤلفين . وهي الكتب التي رجعنا إليها ، وقد قسمناها إلى قسمين : القسم الأول وهي كتب الدعوة الغريبة ، والقسم الثاني كتب الدعوة الشرقية :

أولاً : كتب الدعوة الغريبة وكتب ما قبل الانقسام :

١ - «رسالة الرشد والهداية» للداعي ابن حوشب منصور اليمن ، نشرها محمد كامل حسين بمجلة Collectanae العدد الأول

سنة ١٩٤٨

٢ - «سراير النطقاء» لجعفر بن منصور اليمن ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٣ - «أسرار النطقاء» لجعفر بن منصور اليمن ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٤ - «كتاب الكشف» لجعفر بن منصور اليمن ، نشره الأستاذ ستروتمان

- ٥ - « كتاب دعائم الإسلام » للقاضي النعمان بن محمد ، نشره
الأستاذ آصف على أصغر فيضى
- ٦ - « كتاب المهمة في آداب أتباع الأئمة » ، للقاضي النعمان
ابن محمد ، نشره محمد كامل حسين
- ٧ - « كتاب الاقتصار » للقاضي النعمان بن محمد ، نشره محمد
وحيد ميرزا
- ٨ - « تأويل دعائم الإسلام » للقاضي النعمان بن محمد ، مخطوط
بمكتبة محمد كامل حسين
- ٩ - « كتاب الزينة » لأبي حاتم الرازى ، نشره الدكتور
حسين فيض الله الهمداني
- ١٠ - « كشف المحجوب » لأبي يعقوب السجستاني ، نشره
الأستاذ هنرى كوربان
- ١١ - « إثبات النبوة » لأبي يعقوب السجستاني ، مخطوط بمكتبة
محمد كامل حسين
- ١٢ - « الينابيع » لأبي يعقوب السجستاني ، مخطوط بمكتبة
محمد كامل حسين
- ١٣ - « ديوان ابن هانى الأندلسى » ، نشره الدكتور زاهد على
- ١٤ - « ديوان الأمير تميم بن المعز لدين الله » ، نشره محمد كامل
حسين وآخرون

- ١٥ - « سيرة الأستاذ جوذر » لأبي علي منصور الجوزري ، نشره
محمد كامل حسين والدكتور محمد عبد الهادي شعيرة
- ١٦ - « استتار الإمام » لأحمد بن ابراهيم النيسابوري ، نشره
الأستاذ ايفانوف
- ٧١ - « إثبات الإمامة » لأحمد بن ابراهيم النيسابوري ، مخطوط
بمكتبة محمد كامل حسين
- ١٨ - « راحة العقل » لأحمد حميد الدين الكرمانى ، نشره محمد
كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حامى
- ١٩ - « الرسالة الدرية فى معنى التوحيد » لأحمد حميد الدين
الكرمانى ، نشره محمد كامل حسين
- ٢٠ - « رسالة النظم فى مقابلة العوالم » لأحمد حميد الدين الكرمانى ،
نشره محمد كامل حسين
- ٢١ - « مجموعة رسائل الكرمانى » لأحمد حميد الدين الكرمانى ،
مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
- ٢٢ - « مجموعة رسائل الدروز » ، مخطوطة بدار الكتب المصرية
- ٢٣ - « ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة » ، نشره محمد
كامل حسين
- ٢٤ - « سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة » ، نشره محمد كامل حسين
- ٢٥ - « المجالس المؤيدية » ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

- ٢٦- « ديوان ناصر خسرو » ، نشر بطهران سنة ١٩٢٩
- ٢٧- « سفرنامه » لناصر خسرو ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب .
- ٢٨- « روشانا نامه » لناصر خسرو ، نشر منير بادخشاني بيومباي
- ٢٩- « خوان الإخوان » لناصر خسرو ، نشر الدكتور يحيى الخشاب
- ٣٠- « كلامي بير » لناصر خسرو ، نشر الأستاذ و . إيفانوف
- ٣١- « رسالة في الرد على من ينكر العالم الروحاني » لشهر يار ابن الحسن ، نسخة خطية بمكتبة محمد كامل حسين
- ٣٢- « المجالس المستنصرية » للداعي ثقة الإمام علم الإسلام ، نشر محمد كامل حسين
- ٣٣- « السجلات المستنصرية » ينسب إلى المستنصر بالله ، نشر الدكتور عبد المنعم ماجد
- ٣٤- « الهداية الأمرية » ينسب إلى الإمام الأمر بأحكام الله ، نشر الأستاذ آصف على أصغر فيضي
- ٣٥- « كنز الولد » للداعي إبراهيم بن الحسين الحامدي ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
- ٣٦- « مجموعة التربية » للداعي محمد بن طاهر الحارثي ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
- ٣٧- « الأنوار اللطيفة » للداعي محمد بن طاهر الحارثي ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

- ٣٨ - « تنبيه الغافلين » للداعي حاتم بن إبراهيم ، مخطوط بمكتبة
محمد كامل حسين
- ٣٩ - « الشموس الزاهرة » للداعي حاتم بن إبراهيم ، مخطوط
بمكتبة محمد كامل حسين
- ٤٠ - « زهر بندر الحقائق » للداعي حاتم بن إبراهيم ، مخطوط
بمكتبة محمد كامل حسين
- ٤١ - « دماغ الباطل » للداعي علي بن محمد بن الوليد ، مخطوط
بمكتبة محمد كامل حسين
- ٤٢ - « الذخيرة » للداعي علي بن محمد بن الوليد ، مخطوط
بمكتبة محمد كامل حسين
- ٤٣ - « تاج العقائد » للداعي علي بن محمد بن الوليد ، مخطوط
بمكتبة محمد كامل حسين
- ٤٤ - « سمط الحقائق » للداعي علي بن حنظلة ، نشره الأستاذ
عباس المزراوى المحامى ببغداد
- ٤٥ - « عيون الأخبار » للداعي عماد الدين إدريس ، مخطوط
بمكتبة محمد كامل حسين
- ٤٦ - « زهر المعاني » للداعي عماد الدين إدريس ، مخطوط بمكتبة
محمد كامل حسين
- ٤٧ - « الأرهار » للداعي حسن بن نوح ، مخطوط بمكتبة
محمد كامل حسين

ثانياً : كتب الدعوة الشرقية وهي كتب باللغة الفارسية
ترجم بعضها إلى الإنجليزية :

- 1— True Meaning of Religious (Risala der Haqiqat i Din) by Shihabu'd din Shah. Translated and edited by Prof. W. Ivanow.
- 2— The Truth worshippers of Kurdistan, Ahli Haqq. Texts ed. and trans. by W. Ivanow.
- 3— Pandiyat-i Jawanmardi. ed. and Trans. by W. Ivanow

ثالثاً : أبحاث وكتب عن الاسماعيلية :

- ١ — « نظرية المثل والمثول وأثرها في الشعر الفاطمي » ، لمحمد كامل حسين
- ٢ — « في أدب مصر الفاطمية » ، لمحمد كامل حسين
- ٣ — « أثر التشيع في الشعر المصري بعد الدولة الفاطمية » ،
لمحمد كامل حسين
- ٤ — « بين التشيع وأدب الصوفية بمصر في عصر الأيوبيين
والمماليك » ، لمحمد كامل حسين
- ٥ — « الفاطميون في مصر » ، للدكتور حسن إبراهيم حسن
- ٦ — « عبيد الله المهدي » ، للدكتور حسن إبراهيم حسن
والدكتور شرف

٧ - « المعز لدين الله » ، للدكتور حسن إبراهيم حسن
والدكتور شرف

٥ - « خمس رسائل إسماعيلية » ، للأستاذ عارف تامر

٦ - « منتخبات إسماعيلية » ، للدكتور عادل العوا

- 1— The Rise of the Fatimids by W. Ivanow
- 2— A Guide to Ismaili Litestature W. Ivanow
- 3— A creed of the Fatimids by W. Ivanow
- 4— Studies in Early Persian Ismailism by W.Ivanow
- 5— The alleged Founder of Ismailism by W.Ivanow
- 6— Nasiri Khusrow and Ismailism by W. Ivanow
- 7— Fragments relatifs à la Doctrine des Ismailis
by S. Guyard.
- 8— Essai sur l'Histoire des Ismaéliens de la
Perse by M. C. Defrémery.
- 9— Mémoire sur les Carmathes des Bahrain et
les Fatimides by M. J. DeGoeje.
- 10— The Origins of Ismailism by B. Lewis.
- 11— Esquisse d'une bibliographie Carmathe by
L. Massignon.
- 12— Histoire de l'order des Assassins by Von.
Hammer. Trad. par Hellest.
- 13— The Order of Assassins by Marshall G. S.
Hodgson.

رابعاً : الكتب التاريخية العامة ، وكتب الطبقات
والفرق ، وهي كتب معروفة للباحثين .

المكتبة التاريخية

ظهر منها :

- ١ - المجلد في تاريخ الأندلس :
للمرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادي
- ٢ - الإسلام في إسبانيا :
للدكتور لطفى عبد البديع
- ٣ - التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر :
للأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال
- ٤ - طائفة الإسماعيلية . تاريخها ونظمها وعقائدها :
للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين

يظهر قريبا :

- ١ - الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان :
للدكتور جلال يحيى
- ٢ - تاريخ السلاجقة :
للدكتور عبد النعيم حسنين .

- ٣ - تطور المسألة المصرية :
للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
- ٤ - دراسات في التاريخ البطلمي :
للأستاذ الدكتور إبراهيم نصحي
- ٥ - المغول في التاريخ :
للدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد
- ٦ - تاريخ إمبراطورية الروم تأليف شارل ديل
ترجمة الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شميرة
- ٧ - موجز تاريخ الاشتراكية : تألف نورمان ماكنزي
ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى وزميليه .
- ٨ - داود باشا آخر المماليك :
للأستاذ عبد العزيز سليمان نوار
- ٩ - عمان وشرق أفريقيا في عهد البوسعيد :
للأستاذ جمال زكريا قاسم
- ١٠ - مصر كما صورها هيرودوت :
تحقيق الأستاذ الدكتور أحمد بدوي والدكتور
صقر خفاجة .
- ١١ - غرب أفريقيا بين العروبة والاستعمار :
للأستاذ الشاطر بصلي عبد الجليل .

- ١٢ - الجبرتي وعصره :
للأستاذ عبد القادر طلبات
- ١٣ - مدخل للحضارة الإسلامية :
للدكتور محمد العلابي
- ١٤ - ثورة إفريقية :
للدكتور محمد أنيس
- ١٥ - القاهرة والحياة الاجتماعية فيها في عصر الأتراك العثمانيين :
للأستاذ حسن عبد الوهاب .
- ١٦ - قناة السويس :
للدكتور عبد العزيز الشناوي
- ١٧ - الإقطاع في أوروبا : تأليف جيزنهوف
ترجمة الدكتور حسن حبشي
- ١٨ - فتح العرب فارس :
للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف
- ١٩ - سيف الدولة الحمداني :
للأستاذ مصطفى الشكعة
- ٢٠ - نظم الحكم عند اليونان والرومان :
للدكتور لطفي عبد الوهاب
- ٢١ - صور من الحياة في مصر في عصر الرومان :
للدكتور عبد اللطيف أحمد علي

٢٢ - قصة التصوير في الإسلام :

للدكتور جمال محرز

٢٣ - التاريخ . فلسفته وأهدافه :

للأستاذ الدكتور أبو الفتوح رضوان

٢٤ - أوغندا بين الاستعمار البريطاني والكفاح الوطني :

للأستاذ محمد عبد المنعم محمود

٢٥ - ماتريني :

للأستاذ محمود الخفيف